

سُورَةُ اِبْرَاهِيْمَ

مِنْ ظُلُمَاتِ الْوَهْمِ إِلَى نُورِ الْيَقِينِ
رَحْلَةً تَدْبِيرِيَّةً فِي الْحُرِّيَّةِ وَالشُّكْرِ وَمَالَ الْكَلِمَةِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مِنْ ظُلُمَاتِ الْوَهْمِ إِلَى نُورِ الْيَقِينِ
رِحْلَةً تَدَبُّرِيَّةً فِي الْحُرِّيَّةِ وَالشُّكْرِ وَمَا لِ
الْكَلِمَةِ

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

السورة التي تُخرج الإنسان من سجنه الداخلي

ليست كلُّ الظلمات غيابًا للشمس؛ فقد تشرق الشمس على الطرقات، ويبقى الإنسان غارقًا في ليلٍ لا تراه العيون. ظلمةٌ في التصور، وظلمةٌ في الإرادة، وظلمةٌ في القلب حين يضلُّ عن ربِّه، وظلمةٌ في الحياة حين تستعبدُها الشهوة أو يطغى عليها الخوف أو تتوزعها الأبواب المتفرقة. ومن هنا تفتتح سورة إبراهيم أبوابها: كتابٌ أنزل ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ فكأن رسالتها الأولى أن أعظم رحلات الإنسان ليست انتقاله من أرض إلى أرض، وإنما خروجه من داخله المظلم إلى رحابة الهداية.

إنها سورة التحرير الكبير: تحرير العقل من الوهم، والقلب من الشرك، والإنسان من عبودية الإنسان، والحياة من هيمنة الباطل. وهي في الوقت نفسه سورة الكلمة: الكلمة الطيبة التي تضرب جذورها في الأرض وترفع فروعها إلى السماء، والكلمة الخبيثة التي تنتفش لحظةً ثم تُجثت؛ لأنها بلا أصل. وفيها نرى أن التاريخ، مهما بدا صاحبًا بقوة الطغاة، تحكمه في أعماقه سننٌ هادئة لا

تحابي أحدًا: الشكر يحفظ النعمة وينمّيها، والكفر يبدها؛ والإيمان يثبت صاحبه، والباطل يحمل أسباب سقوطه في جوفه؛ والظلم قد يملك ساعةً، لكنه لا يملك الخاتمة.

وسُمّيت السورة باسم إبراهيم عليه السلام، لا لأنها تسرد سيرته كاملة، بل لأنها تلتقط من حياته مشهدًا يلخص حقيقة الرسالة: نبيٌّ يقف في وادٍ غير ذي زرع، وقد ترك فيه أهله امتثالًا لأمر الله، ثم يرفع يديه بالدعاء. لا قصور تحيط به، ولا جيوش تحرس مشروعه، ولا أسباب ظاهرة تبشّره بالمستقبل؛ وإنما يقين يرى بعين الوعد ما لا تراه عين الحس. ومن ذلك الوادي المقفر ستنشأ أمّ القرى، وتهوي إليها أفئدة الناس، وتقام الصلاة، ويجري الرزق. وكأن السورة تقول: ليست خصوبة الأرض هي التي تصنع الرسالات، بل خصوبة الإيمان؛ وليس الفراغ الذي حولك دليلًا على خلو المستقبل، فقد يزرع الدعاء في الصحراء حضارةً، وتبني الثقة بالله من اللاشيء تاريخًا لا ينتهي.

وعبر السورة يمتد صراعٌ بين حقيقتين: حقيقة الوحي الذي يريد للإنسان أن يبصر، وحقيقة الاستكبار الذي يريد له أن يبقى تابعًا أعمى. سنرى الرسل يقفون في وجه أقوامهم بلا سلاح إلا البيّنة والتوكل، ونرى المستكبرين يهددونهم بالإخراج من الأرض، كأن

الأرض ملكٌ للباطل، وكان صاحب الدعوة غريبٌ في مُلك الله! ثم تنقلب الموازين، فيسكن المؤمنون الأرض من بعد الظالمين؛ لأن الأرض في ميزان الله لا يرثها من علا صوته، وإنما من خاف مقام ربّه وخاف وعيده.

وفي السورة مشاهد من القيامة تُسقط الأقفعة عن العلاقات الزائفة: يتبرأ المتبوعون من أتباعهم، ويعلن الشيطان خطبته الأخيرة بلا موارد، ويعترف بأنه لم يملك على الناس سلطاناً قاهرًا، وإنما دعاهم فاستجابوا له. هناك تنتهي صناعة الأعداء؛ فلا الشيطان يحمل عن الإنسان اختياره، ولا الزعماء يحمون الذين باعوا عقولهم لهم. كلُّ نفس تقف أمام حصيلة ما اختارت، ويعرف الإنسان متأخرًا أن الحرية التي تنازل عنها في الدنيا ستعود إليه يوم القيامة مسؤوليةً لا يستطيع التنازل عنها.

إن سورة إبراهيم لا تدعونا إلى قراءة التاريخ من ظاهره، بل من باطن السنن التي تسوقه. فقد يبدو الطاغية راسخًا، لكن مكره - وإن كان عظيمًا في أعين الناس - محاط بعلم الله وقدرته، وقد تبدو الكلمة المؤمنة ضعيفةً، لكنها متصلة بأصل ثابت وفرع ممتد في السماء. وبين الصورتين يُربّى القلب على ألا يغترّ بما يعلو سريعًا،

وَأَلَّا يَبَاسُ مِمَّا يَنمو ببطء؛ فالشجرة لا تصنع مجدها بالضجيج،
وإنما بالجذور.

فلندخل هذه السورة دخولَ الباحث عن النور، لا دخولَ العابر بين
الكلمات. ولنصغِ إلى آياتها وهي تعيد ترتيب علاقتنا بالحرية
والنعمة والدعاء والتاريخ والمصير. إنها لا تحدثنا عن إبراهيم
عليه السلام وحده، بل عن كل قلب يريد أن يكون إبراهيمًا في
يقينه، شاكراً في نعمته، مخلصاً في عبادته، مشفقاً على ذريته،
ومعلقاً بالمستقبل الذي يصنعه الله حين تضيق في عين الإنسان
حدود الممكن.

مقدمة تمهيدية

حِينَ يَهْبِطُ النُّورُ لِيُعِيدَ تَرْتِيبَ الْإِنْسَانِ

ليست الظلمة دائماً غيابة للضوء؛ فقد تنوهج المصابيح في الطرقات، وتلمع المدن تحت وهج الحضارة، ويبقى الإنسان غارقاً في ليلٍ داخليٍّ لا تبدده الشمس. ظلمةٌ في التصور حين يجهل حقيقة وجوده، وظلمةٌ في القلب حين يتوزع بين الأرباب والأهواء، وظلمةٌ في الحياة حين يصبح المال إلهاً، والقوة معبوداً، والشهوة قبله، ويغدو الإنسان عبداً لكل شيء إلا الله.

ومن هذه الحقيقة الكبرى تفتح سورة إبراهيم أبوابها: ﴿كَتَبْنَا نَزْلَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. فالقرآن لا ينزل ليضيف إلى الذاكرة معلوماتٍ جديدةٍ فحسب، وإنما ليباشر أعظم عملية تحرير عرفها الإنسان: إخراجهم من ظلمات العبودية المتعددة إلى نور العبودية لله الواحد؛ من الخوف الموزع بين المخلوقين إلى الطمأنينة بالعزیز، ومن الحيرة أمام تقلبات الحياة إلى الاستقامة على صراط الحميد.

إن سورة إبراهيم سورةُ النور والكلمة والنعمة والمصير. فيها ينزل الكتاب من السماء، ويقف الرسل أمام الطغاة، وتتكلم الذاكرة عن

أيام الله، ويُعلن قانون الشكر الخالد: ﴿الَّذِينَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. وفيها تتجسد العقائد أشجارًا: كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وكلمة خبيثة اجتثت من فوق الأرض فما لها من قرار. وكان السورة تريد أن تعلّمنا أن الأفكار ليست أصواتًا عابرة؛ إنها جذورٌ خفية تصنع فوق الأرض أخلاقًا ومواقف وحضارات ومصائر.

وسُمّيت السورة باسم إبراهيم عليه السلام، مع أنها لا تسرد حياته كاملة؛ لأنها تختار من سيرته المشهد الذي يختصر جوهرها كله: نبيٌّ يقف في وادٍ غير ذي زرع، وقد أسكن فيه بعض ذريته امتثالًا لأمر الله، ثم يرفع يديه بالدعاء. لا ماء ظاهرًا، ولا زرع، ولا بشر، ولا أسباب تبشّر بقيام حياة؛ لكن في قلب الخليل يقينًا يرى ما وراء حدود المشهد.

هناك، في الوادي الصامت، كانت بدايات مدينة ستصير أمّ القرى، وبيت تهوي إليه أفئدة الناس، وصلاة تقام، وثمرات تُجبي إليه من كل مكان. لم يكن إبراهيم يملك وسائل صناعة هذا المستقبل، لكنه كان يعرف رب المستقبل. وكانت يده المرفوعتان أعظم من صحراء ممتدة؛ لأن الدعاء حين يتصل بالقدرة الإلهية لا يعود أمنيّةً ضعيفة، بل يصير بذرةً قد ينبت الله منها تاريخًا كاملاً.

إنها السورة التي تعيد تعريف الخصب والقحط: فقد تكون الأرض قاحلةً ويكون القلب خصبًا باليقين، فيخرج من القحط عمرانٌ يمتد عبر القرون؛ وقد تكون الأرض غنيةً بالثمرات، ويكون القلب قاحلاً من الشكر، فتتحول النعمة في يده إلى طريق للبوار. ليست المشكلة فيما يملك الإنسان أو يفقد، بل في المعنى الذي يقيمه بينه وبين ما أُعطي.

ومن هنا يحضر الشكر في السورة بوصفه قانوناً لحفظ الوجود، لا مجرد كلمة ثناء عابرة. فالشكر أن يعرف القلب المنعم، وأن يلهج اللسان بحمده، وأن تسير النعمة في الطريق الذي يرضيه. وشكر القوة أن تحمي ولا تطغى، وشكر العلم أن يهدي ولا يستعلي، وشكر المال أن يرحم ولا يستعبد، وشكر الحرية أن تُستخدم في طاعة الله لا في الفرار منه.

وفي مقابل الذاكرة الشاكرة، تعرض السورة ذاكرةً جاحدةً بدلت نعمة الله كفرًا وأحلت قومها دار البوار. فالنعمة لا تضمن لصاحبها النجاة؛ إذ قد تصبح حجةً عليه إذا جعلها جندياً في معصيته. وكم من إنسان لم يهلك لأنه حُرّم، بل لأنه أُعطي فلم يعرف لماذا أُعطي، ومن أين جاءه العطاء، وفي أي وجه ينبغي أن ينفقه.

وتحمل السورة كذلك خطاباً عميقاً في الحرية والمسؤولية. فالذين استضعفوا أنفسهم بالتبعية سيقفون يوم القيامة أمام المستكبرين الذين سَلَّموهم عقولهم، فيسألونهم شيئاً من النجاة، فلا يجدون عندهم إلا العجز. ثم يقف الشيطان ليلقي خطبته الأخيرة، فيعترف بأنه لم يملك على أتباعه سلطان الإكراه، وإنما دعاهم فاستجابوا له. هناك تسقط الأعذار، ويكتشف الإنسان أن تنازله عن حرية الاختيار في الدنيا لم يعفه من مسؤوليتها في الآخرة.

فالقرآن لا يسمح للإنسان أن يختبئ دائماً خلف الزعيم أو الجماعة أو البيئة أو الشيطان. قد تؤثر فيه هذه القوى، وقد تضغط عليه وتزيّن له، لكنها لا تحمل عنه قراره كاملاً. لقد وهبه الله عقلاً وفطرة، وأرسل إليه بياناً، وفتح له باب التوبة؛ فكلما سلم مفاتيح روحه لغيره، صنع بيده شيئاً من قيده.

وفي السورة يقف الرسل في مواجهة أقوامهم بلا قوة أرضية تكافئ قوة خصومهم، لكنهم يحملون قوةً من نوع آخر: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. لا ينكرون الأذى، ولا يتظاهرون بأن الطريق بلا ثمن، بل يقولون في وضوح: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمُونَا﴾. إنهم لا يعدون أنفسهم بحياة لا ألم فيها، وإنما يستمدون من الله قلباً لا يغير الألم وجهته.

هكذا يصبح التوكل في السورة فعلاً من أفعال التحرر: تحرير القلب من عبودية النتائج، ومن الرعب أمام الأسباب، ومن توهم أن البشر يملكون الخاتمة. فالمؤمن يعمل ويصبر ويدفع الباطل بما يستطيع، لكنه لا يجعل رجاءه أسيراً لما تراه عينه؛ إذ يعرف أن وراء المشهد الظاهر ربّاً لا يُخلف وعده رسله.

وحين يهدد الكافرون الرسل بالإخراج من الأرض، تأتي الإجابة من السماء: ﴿لَنْ يَكُنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. إن الأرض ليست ملكاً أبدياً للطاغية، وإن قال عنها: أرضنا. هو عابرٌ فوق ترابٍ لم يخلقه، مستخدمٌ لقوة لم يصنعها، مقيمٌ إلى أجل لم يحدده. أما الوراثة الحقيقية فلمن خاف مقام الله وخاف وعيده؛ لأن الخوف من الله هو الضمانة التي تمنع المظلوم، إذا انتصر، من أن يعيد إنتاج ظالمه.

ولا تغفل السورة عن جراح المظلومين الذين يرون الظالم يمضي في الأرض آمناً، فتأتيهم بالكلمة التي تعيد الطمأنينة إلى القلب: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. قد يتأخر الحساب، لكنه لا يضيع؛ وقد تنام عيون البشر عن الجريمة، لكن علم الله لا يغيب عنه مشهد ولا دمعة ولا حق مسلوب. إن الإمهال ليس غفلة،

والصمت ليس رضا، وتأخر الخاتمة لا يعني أن الظالم هو الذي يكتبها.

ويمتد بصر السورة إلى اليوم الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات، ويبرز الخلق لله الواحد القهار. هناك تنهار الأنداد التي تقاسمت قلوب الناس في الدنيا، وتسقط الأسماء والمناصب والأقنعة، ويقف كل إنسان أمام كسبه. وعندئذ يدرك من أفنى عمره في الباطل أن أعماله التي ملأت الدنيا ضجيجاً لم تكن إلا رماداً اشتدت به الريح في يوم عاصف.

وفي الجهة الأخرى تقف الكلمة الطيبة شجرة لا تقتلعها الرياح؛ لأن أصلها لم يكن في تصفيق الناس، بل في الإيمان بالله. إنها تنمو ببطء، لكنها تنمو إلى السماء؛ وتؤتي أكلها كل حين، لأن الذي باركها هو الله. وقد يقول المؤمن كلمة ثم يمضي، لكنها تنبت في قلب لم يعرفه، وتتحول إلى عمل، ثم إلى أثر يمتد بعد موت صاحبها. وهكذا تعلّمتنا السورة أن الخلود الحقيقي ليس بقاء الاسم على الألسنة، بل بقاء الأثر عند الله.

ستحاول هذه القراءة التدبرية أن تعيش مع هذه المعاني في سياقها القرآني، ملتزمةً بدلالة الآيات وما قرره التفسير الصحيح، ثم تفتح منها نوافذ على النفس والتاريخ والواقع الإنساني. فالتأمل ليس

تحميل النص ما لا يحتمل، ولا استبدال التفسير بالانفعال الأدبي؛ وإنما هو اقترابٌ من المعنى الصحيح بقلبٍ حاضر، ومحاولة لرؤية امتداده في الإنسان والحياة.

لن نقف عند السؤال: ماذا قالت الآيات لأول من سمعها؟ بل سنصل منه إلى سؤال آخر لا يفصل عنه: ماذا تقول لنا الآن؟ كيف تخرجنا من ظلماتنا المعاصرة؟ كيف تعيد تعريفنا للحرية والنعمة والنجاح؟ وكيف تجعلنا نرى الوادي القاحل بعين إبراهيم، والقوة المتجبرة بعين الرسل، والكلمة الصغيرة بعين من يعرف أنها قد تصير شجرة؟

إن سورة إبراهيم ليست حكايةً عن زمن مضى، بل مرآة لكل زمان. ففي كل عصر فراعنة يريدون الأرض لأنفسهم، ومستكبرون يطلبون أتباعًا بلا عقول، وشياطين يزيّنون ثم يتبرؤون، وأناس يبذلون النعمة كفرًا. وفي كل عصر كذلك قلوب إبراهيمية ترى وراء القحط وعدًا، وألسنة تحمل الكلمة الطيبة، ومؤمنون يقولون أمام الأذى: وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

فلندخل السورة دخول من يبحث عن نورٍ يعيد ترتيب قلبه، لا دخول من يضيف صفحات إلى ذاكرته. ولنضع أمام آياتها ما في نفوسنا من أصنامٍ خفية، ونعمِّ اعتدناها، ومخاوف كبرت في أعيننا، وأودية ظننا أن الحياة لا يمكن أن تثبت فيها.

لعل الكتاب الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور يخرج فينا ظلمةً لم ننتبه إليها، ويزرع في أعماقنا كلمةً طيبة، ويعلمنا أن نقول في أكثر لحظات الحياة قحطًا: إن ربي لسميع الدعاء.

الفصل الأول

حين ينزل الكتاب ليكسر أقفال الظلمات

قال تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

تبدأ السورة بالحروف المقطعة: ﴿الر﴾، فتردُّ العقل منذ العتبة الأولى إلى مقام التلقي المتواضع. فهذا القرآن مركب من الحروف التي يعرفها العرب، غير أن اجتماعها في هذا النظم قد جاوز طاقة البشر. المادة بين أيديهم، والسرُّ ليس في المادة وحدها؛ كما أن التراب يعرفه الناس جميعاً، ثم ينشئ الله منه إنساناً لا يملكون أن ينشئوا مثله. وبين الحروف والقرآن مسافةٌ تشبه المسافة بين الطين والروح: عناصر مألوفة، وصنعة معجزة.

ثم تأتي الكلمة التي تعرّف الرسالة منذ بدايتها: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾. إن القرآن لم ينبت من الأرض، ولم تصنعه ظروف التاريخ، ولم يكن استجابةً بشريةً لضغط البيئة؛ إنه منزلٌ من عند الله. وهذه

الحقيقة هي أساس سلطانه على الضمير: فهو لا يستمد صدقه من موافقة الناس، ولا تتغير حقائقه بتقلب أهوائهم، لأنه خطاب العليم بالإنسان، الخبير بما يصلحه، الرحيم الذي لم يتركه يتخبط في متهاتات نفسه بلا هداية.

﴿تُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

قال: ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ بالجمع، وقال: ﴿النُّورِ﴾ بالافراد؛ لأن مسالك الباطل تتكاثر وتتشتت، أما الحق فوجهته واحدة. للشرك وجوه لا تُحصى، وللهوى أبواب متفرقة، وللضلال أزياء تتبدل بتبدل الأزمنة؛ لكن النور واحد، لأنه صادر عن إله واحد، يقود إلى حقيقة واحدة، وينتهي إلى صراط واحد.

والقرآن لا يكتفي بأن يخبر الإنسان عن النور؛ بل يريد أن يخرج به إليه. والفرق بعيد بين معرفة الطريق والسير فيه، وبين الإعجاب بالحق والانقياد له. قد يحمل المرء مصباحاً ولا يغادر سجنه، وقد يحفظ الآيات بينما تبقى أهواؤه هي التي تفقد حياته. إن وظيفة الوحي ليست تزيين الذاكرة بالمعلومات، وإنما تحرير الكيان كله: أن يتغير ميزان الحب والبغض، والخوف والرجاء، والنفع والضرر، والحياة والموت؛ حتى يرى المرء العالم بعينٍ طهرها الوحي من غشاوة الوهم.

ولم تقل الآية: لُتُخْرِجِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدِّهِمْ، بل قالت: ﴿النَّاسَ﴾. فالرسالة منذ نزولها تحمل قلبًا مفتوحًا للإنسان بما هو إنسان. إنها لا تستلذ بتيه الضال، ولا تنظر إلى البعيد عنها بوصفه وقودًا للعداوة؛ بل تراه أسيرًا يحتاج إلى مفتاح، ومريضًا يحتاج إلى شفاء، وتائهاً يحتاج إلى من يدره. ومن هنا كانت الدعوة رحمةً حتى وهي تواجه، وحرصًا حتى وهي تنذر؛ لأن غايتها إخراج الناس، لا التشفي منهم.

لكن الرسول ﷺ، مع علوِّ مقامه وعظمة مهمته، لا يملك استقلالًا أن يفتح قلبًا مغلقًا؛ لذلك قال تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. فالرسول يبلغ، والقرآن يهدي ويدل، والداعية يبذل، ولكن تحوُّل القلب من الموت إلى الحياة سرٌّ يجري بإذن الله. وهذا يخلِّص الداعية من وهمين: وهم الغرور إن استجاب الناس، وهم الانكسار إن أعرضوا. فهو لا يخلق الهداية، وإنما يطرق الأبواب بالنور، ويترك فتح القلوب لرب القلوب.

ثم يحدد الله طبيعة هذا النور ووجهته: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. إنه صراط العزيز؛ فلا يذلُّ من سلكه وإن تكاثرت عليه قوى الأرض، لأنه موصولٌ بمن لا يُغلب. وهو صراط الحميد؛ فلا قسوة فيه ولا ظلم ولا عبث، بل كل أمرٍ فيه جدير بالحمد، وإن

خفيت حكمته أول الطريق. وبهذين الاسمين يستقر قلب السائر:
عزة تحميه من الخوف، وحمدٌ يحميه من سوء الظن.

والله العزيز الحميد هو ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
فالدعوة إلى عبادته ليست دعوة مالكٍ ينازع ملاكًا آخرين، بل
دعوة المالك الحقيقي إلى عباده الذين يعيشون في ملكه، ويأكلون
من رزقه، ويتنفسون هواءه، ثم قد يصرفون عبادتهم لغيره. كل
شيء حول الإنسان يشهد لله بالملك، لكن الإنسان وحده يستطيع أن
يعيش غريبًا عن الشهادة التي ينطق بها الكون.

وحين يعرف المرء أن الله ما في السماوات وما في الأرض، تسقط
من قلبه هيبة المخلوق المتضخمة. فالذين يخشاهم بشرٌ في ملك
الله، والقوى التي ترهبه تتحرك في أرض الله، والأسباب التي يعلّق
عليها مصيره لا تعمل إلا بأمر الله. ليست هذه المعرفة عبارةً عقدية
ساكنة، بل ثورة في الوجدان: أن تنتقل السيادة في قلبك من
المخلوق إلى الخالق، وأن تكفّ عن منح البشر من الخوف والرجاء
ما لا يليق إلا بربهم وربك.

ثم يأتي الوعيد: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. وليس الوعيد
قسوةً منفصلة عن الرحمة، بل هو من تمام البيان؛ لأن من الرحمة
أن يكشف للإنسان مآل الطريق قبل أن يصل إلى نهايته. والتحذير

من النار ليس إحراقاً للروح، بل محاولة لإنقاذها من الحريق. إن الإنذار جرسٌ على حافة الهاوية؛ لا يكره السائر، وإنما يكره له السقوط.

ثم تكشف السورة الجذر النفسي للانحراف: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾. لم يقل إنهم يحبون الدنيا فحسب؛ فحبُّ ما أباح الله من طيباتها ليس مذموماً في ذاته، وإنما قال: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾، أي يختارونها ويؤثرونها على الآخرة. هنا يقع الخلل: حين لا تعود الدنيا معبراً، بل تصبح غاية؛ ولا تعود النعمة وسيلة إلى الشكر، بل تصبح حجاباً عن المنعم؛ ولا يعود العمر مزرعة للخلود، بل يُستهلك كله في تزيين لحظةٍ سائرة إلى الزوال.

إن مشكلة هؤلاء ليست دائماً نقص الأدلة، بل فساد المحبة. فقد يعرف الإنسان الحق، لكنه يرى أن ثمنه يهدد لذته أو مكانته أو سلطانه، فيرفضه لا لأنه غامض، بل لأنه واضح أكثر مما يريد. وحين تستولي الدنيا على القلب، يصير العقل محامياً عن الشهوة: يبحث لها عن الحجج، ويجمل انحرافها، ويصنع من الهوى فلسفةً كاملة.

ولا يتوقف مرضهم عند ضلال أنفسهم: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فالباطل إذا استقر في النفس خاف من مرور النور بقربه؛ لأن

النور يفضحه. لذلك لا يكتفي صاحبه بأن يرفض الطريق، بل يقيم على مداخلة الحواجز، ويسخر من السائرين فيه، ويشوّه معالمه، ويمنع غيره من الوصول إليه. إنه يريد أن يحوّل ضلاله الفردي إلى مناخ عام، حتى لا يبقى أمامه وجهٌ مؤمن يذكره بما قرّط فيه.

ثم قال: ﴿وَيَعْبُودُهَا عِوَجًا﴾. سبيل الله مستقيمة، لكنهم يريدون تقديمها للناس في صورةٍ معوجة؛ يشوّهون صفاءها، وينسبون إليها ما ليس منها، أو يطلبون لها انحرافًا يوافق أهواءهم. يريدون دينًا لا يعترض شهوة، ولا يحدّ طغيانًا، ولا يسأل مألًا من أين جاء، ولا سلطةً كيف استُعملت؛ دينًا يمنحهم طمأنينة الاسم ويعفيهم من تكاليف الحقيقة. لكن الصراط لا يستقيم للهوى؛ إنما يستقيم الإنسان بالصرّاط.

﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ليست المسألة خطأ عابرًا بجانب الطريق، بل مسافة بعيدة صنعوها خطوةً بعد خطوة: إثثار الدنيا، ثم الصد عن سبيل الله، ثم تشويه الطريق. فالضلال يبدأ أحيانًا بميل صغير في القلب، ثم يتحول إلى اختيار، ثم يصير موقفًا، ثم يصبح مشروعًا يضل الآخرين. وهكذا يبتعد الإنسان حتى يبدو له الرجوع شاقًا، لا لأن باب الله أغلق، بل لأنه بالغ في الابتعاد عنه.

تفتح السورة إذن بهذا المشهد الفاصل: كتابٌ ينزل من السماء، ورسولٌ يحمل مهمة الإخراج، وربُّ يفتح القلوب بإذنه، وصراطٌ منسوب إلى العزيز الحميد، وفي الجهة المقابلة قلوبٌ أثرت العاجلة، فصَدَّت عن الطريق وطلبت له العوج.

وبين الجهتين يقف كل إنسان يسأل نفسه: أيُّ شيء يقودني حقاً؟ أهو النور الذي نزل من عند الله، أم الرغبة التي ألبستها ثوب العقل؟ وهل القرآن في حياتي كتابٌ أتلوه، أم يدٌ إلهية تنتشلني كل يوم من ظلمة جديدة؟

فالهداية ليست خروجاً يقع مرةً ثم ينتهي. في النفس زوايا لا يزال النور يطلبها، وفي القلب أوهامٌ تتخفى، وفي الحياة جاهلياتٌ تتبدل أسماؤها. وكلما فتحت للقرآن باباً، أخرج منك ظلمةً لم تكن تعلم أنها تسكنك، وقادك خطوةً أخرى إلى صراط العزيز الحميد.

الفصل الثاني

بلسان القوم... حين يبدأ النور من موضع الفهم

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾.

من رحمة الله أنه لم يجعل الوحي لغزاً يتعالى على أفهام المخاطبين، بل أرسل كل رسول بلسان قومه: من ألفاظهم التي يعرفونها، وتراكيبهم التي يألّفونها، ومداخل البيان التي تنفتح لها عقولهم. فالرسالة جاءت لترشد الإنسان، لا لتستعرض عليه غموضاً؛ ولتقيم الحجة، لا لتتركه في متاهة الرمز الذي لا ينتهي.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ فالبيان أمانة الرسالة. وليس البيان مجرد أن تكون العبارة مفهومة، بل أن يصل الحق إلى موضعه من العقل والقلب، وأن تُرفع عنه الشبهات، وأن يُرى الطريق كما هو. ومن فقه الدعوة أن يعرف المرء لسان من يخاطبهم: لا مفرداتهم وحدها، بل أسئلتهم ومخاوفهم وجراحهم وطريقة رؤيتهم للعالم. فقد يتحدث

الداعية بلغة قومه نحوًا، ثم يكون غريبًا عنهم معنى؛ يجيب عن أسئلة لم يسألوها، ويخاطب صورةً للإنسان لم تعد موجودة.

لكن وضوح البيان لا يعني أن الناس سيهتدون جميعًا؛ فالهداية ليست نتيجة آلية للفصاحة وحدها. قد تشرق الشمس ويغلق إنسان نافذته. لذلك قال تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾. وهذا كله واقع بعلم الله وعدله وحكمته؛ فيهدي سبحانه من أقبل على الحق وطلبه، ويخذل من أعرض وعاند، ولا يظلم ربك أحدًا. ولهذا ختمت الآية باسمين يملآن القلب هيبةً وطمأنينة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ عزيزٌ لا يُعجزه قلب، حكيمٌ لا يضع هدايته أو إضلاله إلا في موضعه اللائق بحكمته وعدله.

ثم تستدعي السورة موسى عليه السلام، وكأن الرسائل تتسلم الشعلة نفسها عبر العصور: ﴿أَنَّ أَخْرَجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. إن مهمة موسى لم تكن أن ينقل بني إسرائيل من أرض فرعون فحسب، بل أن يخرج فرعون من نفوسهم أيضًا. فالطاغية قد يزول من القصر، ويبقى أثره في أرواح الذين عاشوا طويلاً تحت سوطه: خوفٌ متراكم، وقابلية للاستضعاف، وتعلق بالمحسوس، وحنينٌ إلى الذل حين تبدو الحرية شاقة.

وما أكثر من يغادر السجن ويبقى السجن فيه! يحمل قضبانه في خوفه، وحارسه في ضميره، وسقفه المنخفض في تصوراتهِ. لذلك كان الوحي تحريرًا أعمق من تبدل الأنظمة؛ إنه يعيد بناء الإنسان الذي يعرف أن ربه أعلى من فرعون، وأن البحر لا يمنعه إذا أمر الله له بطريق، وأن قلة الأسباب لا تعني استحالة النجاة.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾؛ ذكّرهم بالأيام التي ظهرت فيها نعم الله ونقمه، ونصره لأوليائه وأخذَه لأعدائه؛ بالأيام التي انكشفت فيها يد القدرة، وسقط غرور القوة البشرية أمام أمرٍ من الله. فالتاريخ في الرؤية القرآنية ليس مقبرةً للحوادث، بل مدرسةٌ لليقين. والأمة التي تنسى أيام الله تعيد أخطاءها؛ لأنها ترى حاضرها مقطوعًا عن السنن، فتفزع من طاغية كأنه الأول، وتيأس من شدة كأنها الأخيرة.

وفي التذكير بأيام الله تربية للوجدان على ذاكرة النعمة. فالإنسان حين تضيق به لحظة الحاضر قد ينسى تاريخًا طويلًا من اللطف. يستولي عليه ألم الساعة حتى يتوهم أن الله لم يحسن إليه قط. وهنا يأتي التذكير ليجمع شتات القلب: تذكر كم مرة فُتح لك بابٌ بعد انسدادهِ، وكم من بلاءٍ ظننته النهاية فصار بداية، وكم من بحرٍ وقف أمامك ثم شقَّ لك فيه طريق.

لكن الذي ينتفع بآيات التاريخ ليس كل عابر، بل **(كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)**. صَبَّارٌ في الشدة، شَكُورٌ في النعمة؛ لأنه يرى يد الله في الحاليين. وإذا جاءت المحنة لم تقطع صلته بربه، وإذا جاءت المنحة لم تحببه عن المنعم. والصيغة توحى بكثرة الصبر ودوام الشكر؛ فطريق الرسالة لا يكفيه صبرٌ عابر، والنعمة المتوالية لا يوفيها شكرٌ موسمي.

والعجيب أن الصبر والشكر يفتحان عينًا خاصة في القلب؛ فالصَبَّار يرى في البلاء ما لا يراه الجزوع، والشكور يرى في النعمة ما لا يراه الغافل. الأول لا تحببه مرارة الألم عن الحكمة، والثاني لا تحببه حلاوة العطاء عن الواهب. وبينهما يكتمل وعي المؤمن بالتاريخ: لا تكسره أيام الشدة، ولا تفسده أيام الرخاء.

وهكذا تربط السورة بين اللسان والتاريخ والقلب: لسانٌ يبين، وتاريخٌ يذكر، وقلبٌ يصبر ويشكر. فإذا اجتمعت هذه الثلاثة، لم تعد الآيات حكايات من زمن بعيد، بل صارت مرايا يرى الإنسان فيها نفسه، ومصابيح يهتدي بها في ليل واقعه.

فأيام الله لا تنتهي، وإن اختلفت صورها. في حياة كل مؤمن يومٌ بحرٍ ظن أنه لن يعبره، ويومٌ نجاهٍ عرف فيه أن القدرة فوق الحساب، ويومٌ نعمةٍ امتحنته: أيحفظها بالشكر أم يبدها بالغفلة؟

والسعيد من يقرأ أيامه على ضوء الوحي، فيعرف أن الله الذي
أنجى بالأمس لم تتبدل قدرته اليوم، وأن السنن التي حكمت مصائر
السابقين لا تزال جارية، لا تنام ولا تحابي ولا تخطئ الطريق.

الفصل الثالث

ذاكرةُ النِّعْمَةِ... حين يكون الشكر حارساً للعطاء

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَلَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

بعد أن أمر الله موسى عليه السلام أن يذكر قومه بأيام الله، نسمعه هنا يبدأ التذكير من الجرح الذي خرجوا منه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَلَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. فالنجاة ليست مجرد حادثة عبرت وانتهت، بل نعمة ينبغي أن تبقى حاضرة في الوجدان، تُبنى عليها هوية الأمة، ويُستمد منها اليقين كلما تجدد الخوف.

إن النعمة التي لا تُستحضر تذبل في الشعور، وإن بقي أثرها في الواقع. وقد يعيش الإنسان داخل عطايا الله، لكنه لا يراها؛ لأنه اعتادها حتى فقد الإحساس بها. ينسى المرض حين تأتية العافية، وينسى الضيق حين يتسع له الرزق، وينسى اليد التي انتشلته حين

تستقر قدماه على الشاطئ. ولهذا جاء الأمر: ﴿اذْكُرُوا﴾؛ لأن الذاكرة الإيمانية ليست ترفاً وجدانياً، بل حراسة للقلب من الجحود.

لقد كانت نعمة النجاة عظيمة بقدر فظاعة ما نُجُوا منه: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾. لم يكن عذاباً عابراً، بل عذاباً يُذاقونه باستمرار، كأنه حياة يومية صُممت لإذلالهم، وتحطيم إرادتهم، وإقناعهم بأنهم خُلِقوا ليكونوا عبيداً لفرعون وملئه.

ثم يكشف القرآن أقسى أدوات الاستبداد: ﴿وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. كان الطغيان يطارد المستقبل في مهده، فيذيب الأبناء؛ لأن المستبد لا يخاف الرجال الموجودين وهدمهم، بل يخشى إمكان ولادة رجل لا يركع له. إنه يريد أن يحتكر الغد كما احتكر الحاضر، فيقتل البذرة قبل أن تصير شجرة، ويقطع القوة من جذورها، ويبقي النساء أحياء للخدمة والإذلال.

وما أبشع أن يتحول ميلاد الطفل من بشارة إلى خوف، وأن تنتظر الأم جنينها وهي لا تعرف: أتحملة إلى حضنها أم إلى سكين الجلاد؟ هنا لا يُقتل فردٌ فحسب، بل يُراد تمزيق الفطرة الاجتماعية كلها: أمومة مهددة، وأبوة عاجزة، وطفولة لا تملك حق الحياة، وجماعة يُراد لها أن تشاهد انقراضها البطيء.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. والبلاء يأتي بمعنى الاختبار، ويُطلق بحسب السياق على الشدة أو النعمة؛ ففي استعبادهم وعذابهم امتحانٌ شديد، وفي إنجائهم منه نعمةٌ عظيمة واختبار جديد. فكما يُمتحن الإنسان بما يؤلمه، يُمتحن كذلك بما يبهجه. المحنة تسأله: أتصبر وتثبت؟ والنعمة تسأله: أتشكر ولا تطغى؟ وربما نجح إنسانٌ في امتحان الفقر، فلما جاءه الغنى رسب؛ وصبر تحت القهر، فلما مُكِّن أعاد إنتاج القهر في صورة أخرى.

فالخروج من قبضة فرعون لا يكفي ما لم يخرج من النفس منطق فرعون. وقد يتحرر المظلوم من جلاده، ثم يحمل في داخله حلماً خفياً بأن يصير هو الجلاد متى امتلك القوة. وهنا تأتي تربية الوحي لتطهر معنى الحرية: ليست الحرية أن تنتقل اليد التي تمسك بالسوط، بل أن ينكسر السوط نفسه في الضمير؛ وأن يعرف الناجي أن الله لم ينقذه ليكرر الجريمة، وإنما ليقيم العدل الذي حُرِم منه.

ثم يعلن الله قانوناً من أعظم قوانين بقاء النعم ونمائها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

﴿تَأَذَّنْ﴾ أي أعلن وأعلم إعلاناً مؤكداً؛ فهو وعدٌ رباني جازم، لا حدس بشري ولا أمنية عابرة. وجاءت العبارة مثقلةً بأدوات التوكيد: لئن شكرتم، لأزيدنكم. كأن الزيادة مكتوبة خلف باب الشكر، لا يتخلف وعدها؛ لأن الذي وعد بها هو الله.

ولم يقل: لأزيدنكم منها، بل أطلق الزيادة: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. فتشمل زيادة النعمة، وزيادة البركة فيها، وزيادة الانتفاع بها، وزيادة الرضا عنها، وزيادة القرب من واهبها. فقد يملك اثنان العطاء نفسه، ويكون أحدهما أغنى به من الآخر؛ لأن البركة وسّعت أثره في قلبه وحياته. وربّ قليلٍ شُكر فصار كثيرًا، وكثيرٍ كُفر به فصار عبئًا وشقاءً.

والشكر ليس كلمةً ترددها الشفاه بينما تسير الجوارح في طريق المعصية. إنما هو معرفة القلب بالمنعم، وثناء اللسان عليه، واستعمال النعمة فيما يرضيه. شكر المال ألا يتحول إلى أداة كبر أو ظلم. وشكر العلم ألا يصير سُلماً للاستعلاء على الناس. وشكر القوة أن تحمي الضعيف ولا تسحقه. وشكر الكلمة أن تفتح نافذةً للحق، لا أن تكون ستارًا للباطل.

إن كل نعمة تحمل في داخلها سؤالاً أخلاقياً: ماذا ستصنع بي؟ ليست قيمة العطاء في امتلاكه وحده، بل في الوجهة التي يسلكها

بين يدي صاحبه. فالماء ينبت الزهر إذا وصل إلى أرض طيبة، وقد يزيد المستنقع عفونة إذا انحبس فيه. وكذلك النعم: تكشف طبيعة القلوب بقدر ما تملؤها.

والشكر لا يزيد الموجود فحسب، بل يفتح العين لرؤية ما كان موجوداً ولم ننتبه إليه. فالإنسان الشاكر تتكاثر النعم في وعيه قبل أن تتكاثر في يده. يرى في العافية كنزاً، وفي الأمان وطناً، وفي الصديق الصادق نعمة، وفي القدرة على السجود اصطفاً، وفي ستر الله حياةً أخرى لا يعرف قيمتها إلا من انكشف ستره.

أما الغافل فيعيش فقيراً ولو أحاطت به الكنوز؛ لأن ما لا يشعر به القلب كأنه غير موجود. يحدّق دائماً فيما ينقصه، حتى يعمى عما يفيض حوله. يقيس عطايا الله بأمنية واحدة لم تتحقق، فإن تأخرت نسي آلاف النعم التي لم يطلبها أصلاً، لكنها جاءت إليه قبل أن يعرف كيف يسأل عنها.

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. وكفر النعمة سترها وجحود المنعم، أو استعمال عطائه في معصيته. ولم يصرّح هنا بذهاب النعمة فقط، بل توعدّ بالعذاب؛ لأن الجحود ليس خطأ في العدّ، وإنما فساداً في العلاقة بالله. أن تتقلب في عطائه ثم تتخذ من عطائه قوة على

عصيانه؛ تلك قسوة في القلب تستحق أن يوقظ صاحبها قبل أن يستحكم فيه الموت.

ثم يزيل موسى عليه السلام وهماً قد يتسلل إلى بعض النفوس: أن الله ينتفع بشكر الشاكرين أو يتضرر بجحود الجاحدين: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

لو اجتمع أهل الأرض جميعاً على الكفر ما نقص من ملك الله شيء، ولو اجتمعوا على الشكر ما زادوا في ملكه شيئاً. إنهم لا يرفعونه بطاعتهم ولا يضرّونه بمعصيتهم؛ وإنما يبنون أنفسهم أو يهدمونها. فالأمر الذي يأمرهم به ليس حاجةً منه إليهم، بل رحمةً بهم؛ والنهي الذي يردعهم ليس حمايةً لملكه، بل حمايةً لهم من فسادهم.

هو ﴿غَنِيٌّ﴾ عن العالمين، و﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، محمودٌ شكره الخلق أم كفروه. ولا يجتمع هذان الاسمان في القلب إلا حرراه من التصور الفاسد للعبادة: فنحن لا نعبد الله لنسدَّ حاجةً عنده، تعالى الله عن ذلك، بل نعبدّه لأننا نحن المحتاجون إليه، ولأنه المستحق للحمد كله.

وهكذا تنتقل السورة بالإنسان من ذاكرة الألم إلى فقه النعمة، ومن النجاة من الطاغية إلى العبودية لله، ومن امتلاك العطاء إلى أداء حقه. فالنجاة التي لا يعقبها شكر قد تكون انتقالاً من امتحان إلى إخفاق، والنعمة التي لا تردُّ صاحبها إلى الله قد تصبح حجاباً كثيفاً عنه.

وأعظم الشكر أن تعرف أن النعمة ليست دليلاً على استحقاقك، بل أثرٌ من فضل الله عليك. فلا تتعالى بها على محروم، ولا تجعلها مقياساً لكرامتك المطلقة، ولا تنسَ أنها أمانة قابلة للزيادة بالشكر، وقابلة للزوال بالجحود.

إن الله لا يخشى على خزائنه من عطائه، لكنه يريد أن يطهر أيدينا من الغرور حين تمتلئ، وقلوبنا من القنوط حين تفرغ. يريدنا أن نرى في كل نعمة رسالة محبة، وفي كل تكليف بالشكر طريقاً لبقائها، وفي كل زيادةٍ ثمرةً لقلبٍ عرف من أين جاء الخير.

الفصل الرابع

الخبر القديم الذي لا يشيخ... سؤال الرسل وجواب المتكبرين

قال تعالى: ﴿الَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا
أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأَتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ
بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا لَنَا إِلَّا
نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَادَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾.

بعد أن ذكرت السورة بني إسرائيل بنجاتهم الخاصة، تفتح أمام
البشرية سجلاً أوسع: ﴿الَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. إنه نبا، لا
مجرد خبر؛ خبر عظيم له وزن في المصير، يحمل من العبرة أكثر
مما يحمل من التفاصيل.

تذكر السورة قوم نوح وعادًا وثمود، ثم تفتح وراءهم أفقًا لا يحيط به علم البشر: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾. كم من أمم قامت، وملأت أرضها ضجيجًا، وظن أهلها أن وجودهم هو مركز التاريخ، ثم مضوا حتى غابت أسماؤهم عن ذاكرة الإنسان! لم تبق منهم قصيدة ولا أطلال ولا نقش، لكنهم لم يغيبوا عن علم الله.

في هذه العبارة تصحيحٌ لغرور المعرفة البشرية؛ فما وصل إلينا من التاريخ ليس التاريخ كله. وراء ستار الزمن أممٌ لا يعلم عددهم وتفصيلهم إلا الله. وإذا كان البشر ينسون، فإن رب البشر لا ينسى؛ وإذا محا التراب آثار أقدامهم، فإن أعمالهم لم تُمحَ من الكتاب.

وتتكرر القصة في كل جيل بصور مختلفة: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾. لم يأت الرسل بتخمينات مضطربة، بل ببينات تدل على صدقهم وتكشف الطريق. لكن المشكلة لم تكن دائمًا في غياب الدليل؛ فكثيرًا ما تكون البيّنة حاضرة، ويكون القلب هو الذي قرر ألا يراها.

﴿فَرْتَوْا أَيَدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾. وقد اختلف المفسرون في تصوير هذه العبارة: فقيل إنهم جعلوا أيديهم في أفواههم غيظًا ورفضًا، وقيل ردّوا أيدي الرسل إلى أفواههم إشارةً إلى إسكاتهم، وقيل إن المراد بالأيدي النعم أو الحجج؛ والمشهد في جملته يصور عنادًا نافرًا

يريد أن يردَّ الكلمة إلى فم قائلها، وألا يترك للبيان فرصة كي يصل إلى القلب.

كانهم يقولون للرسول: احتفظوا بكلماتكم؛ لن نسمع، ولن نسمح لهذا الصوت أن يهزَّ البناء الذي ألفناه. فالإنسان قد يخشى الكلمة لا لأنها ضعيفة، بل لأنها قادرة على إعادة ترتيب حياته. ولو تركها تدخل بصدق، فقد تُلزمه أن يتخلى عن وثنٍ يحبه، أو امتيازٍ يحرسه، أو ميراثٍ لم يجرؤ يوماً على فحصه.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾. جمعوا بين الجزم بالكفر والادعاء بأنهم في شك. فهم حاسمون في الرفض، مترددون فيما يزعمون أنه سبب الرفض. وهذه حال نفسٍ اتخذت قرارها أولاً، ثم راحت تبحث عن الشكوك لتبرره. ليس الشك هنا سؤال الباحث المتجرد، بل ستار المعرض الذي لا يريد الوصول.

هناك شكٌّ يدفع صاحبه إلى السؤال الصادق، فيكون جسراً إلى اليقين؛ وهناك شكٌّ يتخذه صاحبه بيتاً يقيم فيه، كلما جاءت البيّنة أغلق نافذته. الأول تواضعٌ معرفي يبحث عن الحق، والثاني هوى يخشى الحق. وليس فساد الشك في وجود السؤال، بل في إرادة السائل: أيريد أن يفهم، أم يريد حجةً مؤقتة ليستمر في الهرب؟

فتأتي إجابة الرسل في سؤال يهزُّ أصل الوهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أفي وجود الله ووحدانيته واستحقاقه للعبادة شك، وآثار فطرته
وإبداعه تملأ السماوات والأرض؟ إنهم يعيشون في معرض كوني
مفتوح، وكل ذرة فيه تحمل أثر الصنعة، ثم يسألون عن الصانع!
ينظرون إلى نظام لا يتخلف، وتقدير لا يختل، وحياة تنبثق من
مواد لا تملك لنفسها حياة، ثم يريدون أن تكون هذه الدلالات كلها
صامتة.

ووصفه بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعيد الإنسان إلى البدء:
الذي ابتداء هذا الوجود من غير مثال سابق، ألا يستحق أن يُفرد
بالعبادة؟ والذي خلقك قبل أن تملك لنفسك اسمًا أو إرادة، أيعجز
عن بعثك أو هدايتك أو تدبير أمرك؟

ثم يكشف الرسل حقيقة الدعوة التي رفضها أقوامهم: ﴿يَدْعُوكُمْ
لِيَعْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ما أعجب
الإنسان! يفر من الذي يدعوه ليغفر له، ويعاند الباب المفتوح
لإنقاذه، ويعامل الرحمة كأنها خصم.

إن الله لا يدعوهم ليعبّاد إنسانيتهم، بل ليطهّرها. لا يريد أن يضيق عليهم الحياة، بل أن يحررها من آثار الذنب، وأن يمهّلهم إلى الأجل الذي قدره لهم من غير أن يعاجلهم بعذاب الاستئصال. لكن القلب حين يفسد تصوره عن الله يرى التكليف قيّدًا، مع أنه مفتاح؛ ويرى التوبة انكسارًا، مع أنها ولادة جديدة؛ ويرى العبودية نقصًا، مع أنها التحرر الكامل من كل عبودية سواها.

وعوضًا عن مواجهة هذا المعنى، لجأ الأقوام إلى الاعتراض المتكرر: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. كأن بشرية الرسول تنقض رسالته، مع أنها شرط في قدرته على أن يكون قدوة للبشر. لو كان ملكًا لقالوا: كيف نقّدي بمن لا يجوع كما نجوع، ولا تعتريه دوافعنا، ولا يعيش امتحاننا؟ لكنهم حين جاءهم الرسول بشرًا، جعلوا بشريته حجةً لردّه.

لقد أرادوا رسولًا يفوقهم في الخِلة، مع أن الله أرسل إليهم من يفوقهم بالاصطفاء والأمانة، ويبقى قريبًا منهم في الطبيعة والتجربة. يمشي في أسواقهم، ويعرف أحزانهم، ويواجه ما يواجهون، ثم يدلّهم بحياته على أن الاستقامة ممكنة داخل الشرط البشري، لا خارجه.

ثم يظهر سلطان الموروث: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. لم يقولوا: عما ثبتت صحته، بل: عما كان يعبد آبائنا. لقد أصبحت القَدَم حجة، وتحول الآباء من بشر يصيبون ويخطئون إلى معيار يحاكمون إليه الوحي.

إن الموروث يمنح النفس شعورًا بالأمان؛ لأن التفكير مسؤولية، ومراجعة المؤلف قد توجع. ومن الأسهل أن يحمل الإنسان عادات آبائه من أن يحمل أمانة السؤال: هل كانوا على الحق؟ لكن كثرة الأقدام على الطريق لا تجعله مستقيمًا، وطول عمر الخطأ لا يحوله إلى صواب.

﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ﴾. طلبوا حجةً ظاهرة بعد مجيء البينات، لا طلب اهتداء، بل تعنتًا ومراوغة. وكأنهم يريدون أن يجعلوا من المعجزة عرضًا خاضعًا لأهوائهم، يحددون هم شكله وموعده، ثم يحتفظون لأنفسهم بحق الرفض بعد وقوعه.

فأجاب الرسل في صدقٍ وتواضع: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾. لم ينكروا بشريتهم، ولم يصنعوا حول أنفسهم هالةً من الوهم؛ فالنبوة لا تخرج الرسول من جنس البشر، وإنما ترفعه بالوحي والاصطفاء. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ فالرسالة

مِنَّةُ إلهية واختيار، لا رتبة يننزعها الإنسان بذكائه، ولا ثمرة يتملكها بالجهد المجرد.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. المعجزات ليست في خزائن الرسل يتصرفون بها كيف يشاؤون. إنهم عبادُ الله، لا شركاء له في القدرة. وهذا من صفاء التوحيد: حتى في مقام إثبات النبوة، يردُّ الرسل القوة كلها إلى الله، فلا يستجيبون لاستفزاز الأقوام بادعاء ما ليس لهم.

ثم تأتي الكلمة التي تسند الظهر حين تقل الأسباب: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

التوكل ليس هروباً من العمل، بل تحريرٌ للعمل من عبودية النتائج. أن تبذل كل ما تستطيع، ثم لا تجعل قلبك رهينةً لما تستطيع. أن تعرف أن السبب باب، لكنه ليس ربًّا؛ وأن البشر يملكون أن يغلقوا باباً، لكنهم لا يملكون أن يغلقوا خزائن الله.

ولذلك قال الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾. كأن الهداية الماضية دليلٌ على الكفاية الآتية. فالذي دلَّهم على الطريق لن يتركهم في منتصفه، والذي فتح لهم باب معرفته لن

يسلّمهم إلى أعدائه. وكل هداية سبقت هي عربون لطفٍ سيأتي، وكل خطوة أوصلهم الله إليها تقول لهم: لا تخافوا بقية المسافة.

ثم يبلغ اليقين ذروة هدوئه: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَادَيْتُمُونَا﴾. لم يقولوا: لن تؤذونا؛ فهم لا ينكرون الواقع ولا يدّعون أن الإيمان يعزل الجسد عن الألم. قالوا: ستؤذوننا، ولكننا سنصبر. وهذه شجاعة الوحي: لا تعد المؤمن بطريق بلا أشواك، بل تمنحه قدمًا لا توقفها الأشواك.

إن الصبر هنا ليس قبولًا بالباطل، ولا استسلامًا للظلم، وإنما ثباتٌ على الحق تحت كلفة الأذى. أن يوجعوك دون أن يغيّروا بوصلتك، وأن يضغطوا عليك دون أن ينتزعوا منك كلمتك، وأن يبقى قلبك لله وإن أحاطت بك أدوات البشر.

ويُختم الموقف بتكرار التوكل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. فالخطب أكبر من طاقة النفس منفردة، والطريق أطول من مخزونها المحدود. ولا يثبت أمام التهديد من اعتمد على قوته وحدها؛ لأن الإنسان يعرف في أعماقه هشاشته. لكنه إذا استند إلى الله، لم تعد المسألة قياس ضعفه بقوة خصمه، بل صارت اتصال ضعفه بقوة العزيز.

وهكذا يقف الرسل في وجه تاريخٍ كاملٍ من العناد، وليس في أيديهم سلطان دنيوي، لكن في قلوبهم شيءٌ أعظم: هداية عرفوا بها الطريق، وصبرٌ يحتملون به الثمن، وتوكلٌ يردُّ الأمر كله إلى الله. وذلك هو سرُّ الثبات: ألا تزعم أنك لا تتألم، بل أن تعرف إلى من ترفع ألمك؛ وألا تدّعي أنك لا تخاف، بل أن يكون رجاؤك في الله أكبر من خوفك من الناس.

الفصل الخامس

حين يهْدِدُ الباطلُ بالنفي... وتَعِدُ السماءُ بالوراثَةِ

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۚ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

حين عجز الكافرون عن إسكات الحجة بالحجة، انتقلوا إلى السلاح القديم الذي تلجأ إليه كل قوة تخشى الكلمة: التهديد بالإخراج.

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾.

قالوا: ﴿أَرْضِنَا﴾، كأنهم خلقوا ترابها، وأجروا أنهارها، ورفعوا سماءها، وكان الإقامة فيها منحة يقدمونها لمن وافقهم في الاعتقاد. هكذا يفعل الطغيان دائماً: يستولي على ما لله، ثم يمنح نفسه حق تحديد من يستحق أن يعيش فيه. يحول الوطن من بيت يتسع للناس

إلى وثنٍ يحرس سلطان فئة، ثم يتهم أصحاب الحق بالغرابة؛ لأنهم رفضوا السجود لهذا الوثن.

لم تكن جريمة الرسل أنهم حملوا سلاحًا على أقوامهم، بل أنهم حرروا الضمائر من سلطانهم. فالطاغية قد يحتمل منك أن تنازعه شيئاً من المال، لكنه لا يحتمل أن تنزع من قلب الإنسان خوفه منه. يعرف أن سلطانه لا يقوم على السيف وحده، بل على الوهم الذي يجعل الناس يظنون أنه يملك مصائرهم. فإذا جاءت الرسالة تقول لهم: ربكم الله، اهتزّ أساس القصر وإن بقيت جدرانها واقفة.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. إنه عرض الإكراه في صورته العارية: إما أن تغادروا الأرض، وإما أن تتخلوا عن الحقيقة. يريدون من الرسل أن يعودوا في ملّتهم، والرسل منزهون عن أن يكونوا على الكفر؛ فالخطاب جارٍ على ما يغلب في قومهم أو على زعم المكذبين وتوهمهم. والمقصود أن القوم لم يطبقوا وجود صوت مستقلٍّ عن جماعتهم، فكان الاختلاف عندهم جريمة لا تُغتفر.

هذه هي طبيعة الاستبداد الديني والفكري: لا يكفيه أن يملك الشوارع، بل يريد أن يسكن الضمائر. لا يرضيه صمتك وحده، بل يطلب منك أن تصادق على باطله، وأن تعود إلى ملّته، وأن تمنحه من داخلك شهادةً بأنه على حق. إنه يخشى المؤمن الذي

يقول: لا؛ لأن هذه الـ«لا» تكشف أن سلطان الطاغية له حدود، وأن في الإنسان موضعًا لا ينبغي أن يدخله إلا الله.

وفي اللحظة التي ضاقت فيها الأرض بالرسل، فُتِحَ لهم باب السماء: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

بين تهديد البشر ووعد الله فرقٌ لا يُقاس بالصوت، بل بالقدرة. كان الكافرون يتكلمون من ظاهر القوة، وكانت الرسل تسمع وعدًا لا يراه أحد. وفي الظاهر قد يبدو التهديد البشري أقرب؛ لأن له جنْدًا وسجَنًا وسلاحًا، أما وعد الله فيسكن الغيب. لكن المؤمن يعرف أن الغيب الذي يملكه الله أصلٌ، وأن القوة الظاهرة فرعٌ زائل.

قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾، فقال الله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾. قابل توكيدهم بتوكيد، ووعيدهم بوعد، وإرادتهم المحدودة بحكمه النافذ. إنهم يستطيعون أن يضايقوا أولياء الله حينًا، لكنهم لا يستطيعون أن يكتبوا الخاتمة؛ فأخر السطر ليس في دواوين الطغاة، بل في كتاب الله.

ثم يأتي الوعد الآخر: ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

الأرض التي قالوا عنها: ﴿أَرْضِنَا﴾، يعيدها الله إلى حقيقتها: هي أرضه، يستخلف فيها من يشاء. والذين هُددوا بأن يُقتلوا منها

يُوعَدُونَ بِأَنْ يَسْكُنُوا مِنْ بَعْدِ الَّذِينَ تَوْهَّمُوا أَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ الْإِبْدِيَّةِ. مَا أَسْرَعَ أَنْ تَتَبَدَّلَ الضَّمَائِرُ: «أَرْضُنَا» تَصْبِحُ «مِنْ بَعْدِهِمْ»، وَالَّذِينَ كَانُوا يَمْلِكُونَ سُلْطَةَ الْإِخْرَاجِ يَصِيرُونَ خَبْرًا عَنْ قَوْمٍ مَضَوْا.

لَكِنْ هَذَا الْوَعْدُ لَيْسَ إِذْنًا لِلْمَظْلُومِ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِذَا انْتَصَرَ إِلَى نَسْخَةِ مَنْ ظَالَمَهُ، بَلْ هُوَ مَرْتَبُطٌ بِشَرْطٍ يَطْهِّرُ مَعْنَى التَّمَكِينِ:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

إِنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ وِرَاثَةَ الْأَرْضِ هُوَ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ. خَوْفُ الْمَقَامِ يَضَعُ فِي الْقَلْبِ مُحْكَمَةً لَا تَنَامُ، وَيَجْعَلُ السُّلْطَةَ أَمَانَةً لَا غَنِيمَةً. فَالْمَرْءُ قَدْ يَخَادِعُ النَّاسَ، وَقَدْ يَزُورُ الرِّوَايَةَ، وَقَدْ يَنْجُو مِنْ قَانُونِ الْأَرْضِ؛ لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغِيبَ عَنِ مَقَامِ اللَّهِ.

وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ لَيْسَ رَعْبًا يَقْتُلُ الرُّوحَ، بَلْ يَقْظُهُ تَحْرُسُهَا مِنَ الْإِنْحِرَافِ. هُوَ خَوْفٌ يَحْرُرُ الْإِنْسَانَ مِنْ كُلِّ خَوْفٍ أَدْنَى؛ لِأَنَّهُ حِينَ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ لَا يَبِيعُ ضَمِيرَهُ خَوْفًا مِنْ مَسْئُولٍ، وَلَا يَظْلِمُ ضَعِيفًا طَمَعًا فِي رِضَا قَوِيٍّ، وَلَا يَغَيِّرُ وَجْهَهُ كُلَّمَا تَبَدَّلَ صَاحِبُ السُّلْطَانِ.

مَنْ خَافَ مَقَامَ اللَّهِ لَمْ يَسْتَبَدَّ حِينَ قَدَّرَ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ فَوْقَ قُدْرَتِهِ قُدْرَةٌ. وَلَمْ يَنْتَقِمْ لِهَوَاهُ حِينَ انْتَصَرَ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَدْلَ لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ

مواقع الناس. ولم يعتبر الأرض ملكًا خاصًا به؛ لأنه يدرك أنه مستخلف فيها، وأن الذي أذهب السابقين قادر على أن يذهب به إذا أعاد سيرتهم.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾؛ طلب الرسل من الله الفتح والحكم بينهم وبين أقوامهم، لما بلغ التكذيب والعناد مداه. وقد قيل إن المكذبين كذلك استفتحوا واستعجلوا الفصل؛ وعلى المعنى الأول أو الثاني، فقد جاء حكم الله، وانكشف أن القوة التي ملأت العيون لم تكن تملك لنفسها نجاة.

﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

الخبية ليست لجبار واحد، بل ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. إنها قاعدة تتجاوز أسماء الأشخاص وأزمنتهم. كل من تجبر على الخلق، وعاند الحق بعد ظهوره، يحمل في داخله بذرة خبيته، ولو صفقت له الجموع، واتسعت له البلاد، وتزاحمت الألسن على مدحه.

الجبار يرى نفسه أكبر من أن يخضع، والعنيد يرى الحق ثم يميل عنه إصرارًا. يجتمع فيه تضخم الذات وصلابة الانحراف: لا تكفيه المعصية، بل يريد أن يجعلها نظامًا؛ ولا يرضيه أن يضل، بل يقاتل كل من يذكره بأن فوقه ربًّا.

لكن القرآن يختصر نهاية هذا الانتفاخ كله في كلمة: ﴿وَحَابٌ﴾. ما أقصر المسافة في التعبير بين صخب الجبروت وصمت الخيبة! قصورٌ وجنودٌ ومؤامراتٌ وخطبٌ وألقاب، ثم كلمة واحدة تمحو البريق كله: حاب.

﴿مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمُ﴾. إنها أمامه تنتظره؛ وعُبر عنها بالوراء لأنها تتعقبه وتحيط بمصيره، أو لأن كل ما توارى عن الإنسان ولم يبلغه بعد يقال إنه وراءه. يمضي الجبار في الدنيا وهو يظن أن خلفه الحرس، وأمامه الملك، وفوقه المجد؛ لكن القرآن يكشف ما لا تراه عينه: وراء هذا المشهد كله جهنم.

﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾. لقد كان في الدنيا يسقي الناس مرارة القهر، فإذا به في الآخرة يُسقى من صديد أهل النار. صورةٌ تقلب مذاق السلطة التي تلذذ بها: ما كان حلواً في شهوته يصير غايةً في القبح والألم.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾. لا يشربه شرب المرتوي، بل يبتلعه جرعةً بعد جرعة مع شدة كراهته، ولا يكاد يمر في حلقه. هناك تسقط أوامر الجبار؛ فلا يستطيع أن يختار شرابه، ولا أن يردّ الكأس، ولا أن يستدعي من كان يخدمه. الذي فرض إرادته على الضعفاء يقف الآن منزوع الإرادة أمام الجزاء.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. تأتيه أسباب الموت وآلامه من كل جهة، لكنه لا يموت فيستريح. إنه عذابٌ تتكرر فيه شدة الاحتضار بلا نهاية الاحتضار. وبين الرغبة في الخلاص واستحالة الخلاص يتجدد الألم.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. لا تنتهي الشدة التي يعيشها؛ فما وراءها أشد، وعذاب النار متتابع لا يفضي إلى راحة. وقد كان الجبار في الدنيا يظن أن الغلظة بطولة، وأن القسوة قوة، فجاءه عذاب غليظ يليق بغلظة قلبه وعناقه.

هذه الآيات ليست مساحةً للتشفي البشري في أحد، بل إنذارٌ للظالم ورحمةٌ بالمظلوم. تقول للظالم: لا تغتر بالإمهال، فإن وراءك حسابًا. وتقول للمظلوم: لا تجعل المشهد الراهن هو الصورة الأخيرة، فإن للكون ربًّا لا يضيع عنده ألم، ولا تختلط في ميزانه يد الجلاد بدم الضحية.

وتقول لكل من مُنح شيئاً من القدرة: انتبه؛ فبذور الجبروت قد تبدأ صغيرةً جدًا. تبدأ حين تستثقل الاعتذار، أو تأنف من قبول الحق لأنه جاء على لسان من هو دونك، أو تستعمل ضعف إنسان لتكسر كرامته، أو تظن أن قدرتك على العقوبة تمنحك حقها. كل فرعونٍ

كبير بدأ من لحظةٍ صغيرة أطاع فيها المرء غروره، ثم كررها حتى صار الغرور عرشاً.

أما النجاة فتبدأ من خوف المقام: أن تستحضر الله قبل كل قرار، وأن تسأل نفسك حين تقدر: كيف سأقف بهذا الفعل بين يديه؟ عندئذ لا تعود المراقبة قيداً على الحرية، بل تصبح حارساً لإنسانيتك من أن تفسدها القوة.

الفصل السادس

أعمال كالماد... حين تخون الكثرة صاحبها

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ﴾.

بعد صورة الجبار الذي تنتظره جهنم، تنقلنا السورة إلى صورة أخرى شديدة الرهافة والقسوة معاً: رمادٌ في مهب ريح عاصفة.

لم تقل الآية إن الكافرين بلا أعمال؛ فقد يعملون، ويبنّون، وينفقون، ويبتكرون، ويحققون ما يراه الناس عظيمًا. القضية ليست في غياب الحركة، وإنما في غياب الأصل الذي يمنحها بقاءها عند الله. أعمال كثيرة، لكنها منقطعة عن الإيمان به؛ فبدأت يوم القيامة كرمادٍ لا يملك التماسك أمام الريح.

والرماد ليس شيئاً لم يكن؛ إنه بقية نارٍ كانت مشتعلة، وصورة مادةٍ أحرقت حتى فقدت بنيتها الأولى. قد يوحى للناظر من بعيد بالكثرة؛ تلُّ واسع من ذرات متراكمة، لكن لمسة ريح تكشف هشاشته. وكذلك أعمالٌ ملأت الدنيا حضوراً، وصنعت لأصحابها أسماءً

وصورًا ومكانة، ثم جاءت الآخرة فكشفت أنها تفتقد الشرط الذي يجعلها مدخرةً عند الله: الإيمان به وإرادة وجهه، مع موافقة ما شرع.

﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾. لم تهب الريح إلى جواره، بل حملته وبددته. ثم لم تكن في وقت ساكن، بل ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾؛ يومٌ امتلأ بالريح حتى كأن العصف صفته كلها. تتفرق الذرات في الفضاء، ويستحيل على صاحبها أن يجمعها أو يسترد منها شيئاً.

هذه صورة الخسارة التي لا تُدرك حقيقتها إلا حين يحتاج الإنسان إلى عمله. في الدنيا ربما استوفى من عمله ثناء الناس، أو مالاً، أو سمعةً، أو لذةً في الشعور بالتفوق. لكنه حين يصل إلى اليوم الذي لا تنفع فيه العملات القديمة، يبحث عن رصيدٍ عند الله فلا يجد.

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾. كانوا في الدنيا يظنون أن أعمالهم مما يملكون: «كسبنا، أنجزنا، بنينا». فإذا بالحقيقة تنكشف: لا يقدرُونَ منها على شيء. لا يستطيعون حبس ذرةٍ واحدة، ولا تحويل أثرٍ دنيوي إلى نجاة أخروية بعد أن جاءوا إلى الله بغير إيمان.

والمشهد يهز المؤمن أيضاً، وإن كان المثل في الكافرين؛ لأنه يعلمه أن كثرة العمل وحدها لا ينبغي أن تخدّره عن سؤال القبول. فما قيمة صورة العمل إذا خلت من روحه؟ وما قيمة عبادة يلتهمها الرياء، أو صدقة يتبعها الأذى، أو كلمة حق أريد بها تعظيم النفس، أو علم صار وسيلةً للمباهاة؟

العمل في منطق القرآن ليس حجماً ظاهراً فحسب، بل حقيقة تقوم على أصلٍ صحيح ونيةٍ صادقة واتباع للحق. قد يكون العمل صغيراً في عيون الخلق، لكنه ثقیلٌ عند الله لأن قلباً مخلصاً حمّله إليه؛ وقد يكون ضخماً تصاحبه الأضواء، لكنه أجوف لأن صاحبه لم يرد به إلا تلك الأضواء.

إن الإنسان المعاصر يعيش وسط صناعة واسعة للمظهر: الأرقام توحى بالقيمة، والانتشار يوحى بالصواب، والتصفيق يوحى بالقبول. لكن هذه الآية تأتي كريحٍ تهز المقاييس كلها. ليست كل كثرة ثَقَلًا، ولا كل شهرة بقاءً، ولا كل أثر ظاهر رصيْدًا في الآخرة. قد يكون ما تراه جبلاً في عيون الناس رماداً في ميزان الحقيقة.

والرماد لا جذور له. هنا يتصل هذا المثل بما سيأتي من مثل الكلمة الطيبة: هناك شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهنا ذرات

بلا أصل تحملها الريح. الفارق بين المصيرين هو الاتصال بالحقيقة: ما اتصل بالله ثبت ونما وأثمر، وما انقطع عنه قد ينتفش ويتكاثر، لكنه يظل بلا جذر يحميه ساعة العاصفة.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ﴾. ليس الضلال البعيد أن يخطئ المرء خطوة ثم يرجع، بل أن يقضي عمره يجمع ما يظنه زادًا، ثم يكتشف أنه لم يكن صالحًا للسفر. أن ينفق رأس ماله كله في بناء صورة لا تعبر معه القبر. أن يريح إعجاب العالم، ويخسر المعنى الذي خُلق من أجله.

وهنا تضع الآية يدها على أعرق مخاوف القلب العاقل: ليست الخسارة أن تعمل قليلاً فحسب، بل أن تعمل كثيرًا في الاتجاه الخطأ؛ أن تمتلئ أيامك بالحركة، ويكون حاصلها عند النهاية فراغًا. فقد يُضل الإنسان عن غايته لا بالكسل، بل بالانشغال المتواصل؛ يركض طويلاً حتى لا يجد فرصة ليسأل: إلى أين؟

فيا له من سؤال ينبغي أن يقف على أبواب أعمالنا جميعًا: ماذا سيبقى من هذا إذا هبت ريح الآخرة؟ هل فيه من الإيمان والإخلاص والحق ما يجعله ثابتًا، أم أنه رماذ متراكم، يخدعني حجمه حتى تأتي ساعة الكشف؟

السعيد ليس من كثرت آثاره في الأرض فحسب، بل من كان له عند الله أصلٌ لا تقتلُعه العواصف. وليس الخلود أن يبقى اسمك على ألسنة الناس؛ فقد تذكر الألسنة من نسيه الله من رحمته، وقد يخفى في الأرض عبْدٌ يعرفه أهل السماء. الخلود الحق أن تودع عملك عند من لا تضيع ودائعه، وأن تصنع في صمتك شيئاً لا تستطيع رياح القيامة أن تبدده.

الفصل السابع

الْخَلْقُ لَيْسَ ضَرُورَةً عَلَى اللَّهِ... وَسَقُوطُ وَهُمْ الاستغناء

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

بعد مشهد الرماد المتطاير، ترفع السورة البصر إلى السماوات والأرض؛ كأنها تقول للإنسان: قبل أن تغتر بعملك وقوتك ووجودك، انظر إلى البناء الذي تعيش فيه، واسأل نفسك: من الذي أقامه؟ ومن الذي أودعك فيه زمنًا محدودًا؟

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ والرؤية هنا رؤية علم واعتبار، لا مجرد نظر العين. فكم من إنسان يرى السماء كل يوم ولا يراها حقًا! تمر فوقه كأنها سقف معتاد، وتدور الأفلاك في نظامها فلا توقظ فيه سؤالًا. الألفة قد تحجب المعجزة؛ لأن تكرار الشيء يجعل النفس تتوهم أنه عادي، مع أن انتظامه المتكرر آية متجددة لا يقل إعجازها بسبب اعتيادنا لها.

﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾. لم يخلق هذا الكون عبثًا، ولم يُنشئ الإنسان ليمضي في رحلة بلا غاية، ثم ينتهي كل شيء

إلى العدم الذي يستوي فيه الظالم والمظلوم، والمصلح والمفسد. الخلق بالحق يعني أن له حكمةً وغايةً، وأن وراء انتظام العالم ميزاناً، ووراء التكليف حساباً، ووراء الرحلة لقاءً.

إذا كان البناء قائماً بالحق، فلا يمكن للباطل أن يكون خاتمه. قد يعلو الباطل وقتاً، لكنه جسم غريب في نسيج الكون، يحمل تناقضه معه. وقد يُهزم صاحب الحق في مشهد من مشاهد الدنيا، لكن هزيمته الظاهرة لا تبطل حقيقة الطريق؛ لأن الحكم النهائي ليس للحظة المنظورة، بل لرب السماوات والأرض.

ثم يخاطب الله غرور البشر بكلمة تردهم إلى حجمهم: **﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**.

نحن لسنا ضرورةً يفتقر إليها الكون، ولا يفتقر الله إلينا. لسنا الحلقة التي إن غابت تعطلت القدرة، ولا الجيل الذي إن فسد انتهت إمكانات الخير. يستطيع الله أن يذهب بالخلق ويأتي بغيرهم؛ فلا قيمة للإنسان بنوعه المجرد، وإنما قيمته بما يحققه من عبودية وحق وعدل.

وما أشد حاجة النفس إلى هذا المعنى حين يتضخم فيها الشعور بالمركزية! يظن المرء أن العمل لا يقوم بدونه، وأن الناس لا

يهتدون إلا بصوته، وأن المشروع ينتهي إذا غاب، وأن المكان خُلق على مقياسه. ثم تأتيه الآية: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾. ليست لإلغاء قيمة العمل، بل لتطهيره من عبادة الذات.

أنت مُكْرَم، لكنك عبد. لك دور، لكنك لست ربّ الدور. تُطالب بالبذل، لكن النتائج لا تتوقف عليك. وإذا اصطفاك الله لخير، فالمِنَّة له لا لك؛ إذ كان قادرًا أن يستبدلك بمن هو أصدق قلبًا وأطهر يدًا.

وهذا المعنى لا يورث اليأس، بل يحرر المؤمن من عبء ادعاء ما ليس له. يعمل بإخلاص لأنه مستخلف، لا لأنه يتوهم أنه يحمل الكون على كتفيه. فإذا نجح حمد الله ولم يسكر بالإنجاز، وإذا أخفق راجع نفسه ولم ينهر؛ لأن القضية لله قبل أن تكون له.

﴿وَمَا ذَلِك عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ ليس ذهابكم والإتيان بخلق جديد أمرًا صعبًا على الله. فالذي أنشأ الخلق أول مرة لا يعجزه أن يستبدل قومًا بقوم، أو ينشئ خلقًا آخر. العجز صفة المخلوق، أما قدرة الله فلا يحدها ما نعرفه من قوانين الأسباب؛ لأنها هي التي خلقت الأسباب ومنحتها أثرها.

وقد تتوهم أمة أن تاريخها يمنحها حصانة، أو أن انتسابها إلى رسالة يعفيها من مقتضياتها، أو أن الله لن يقيم دينه إلا بها. لكن السنن لا تعرف هذا الغرور. من نكص عن الأمانة استبدله الله، ومن حملها بصدق استخدمه، والفضل كله لله.

إن هذه الآيات الثلاث تهدم وثنين خفيين: وثن العبث ووثن الاستغناء. فالكون لم يُخلق عبثاً، والإنسان ليس مستغنياً ولا مستغنى عنه بسبب ذاته. خلقه الله بالحق، وأعطاه فرصة أن ينتسب إلى الحق، فإن رفضها لم يعجز الله ولم يضر ملكه، وإنما أضاع نفسه.

وحين يستقر هذا في القلب، يعيش الإنسان بين كرامتين: كرامة أن الله خاطبه وكلفه وفتح له طريق معرفته، وكرامة التواضع الذي يجعله يعرف أن وجوده عطية لا استحقاق. فلا يحتقر نفسه حتى يعطلها، ولا يعظمها حتى يؤلّها؛ بل يضعها في موضعها الجميل: عبدٌ ضعيف، أكرمه القوي بأن يدل عليه، ويستعمله في طاعته، ويعده إن صدق بحياة لا تزول.

الفصل الثامن

الساحة الكبرى... حين يتبرأ السادة من الذين سلّموهم عقولهم

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنُكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلَيْنَا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ﴾.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

ما أوجز العبارة، وما أوسع المشهد! خرجوا جميعًا من أستار الدنيا، وسقطت الجدران التي كانوا يختبئون وراءها: جدار المنصب، وجدار النسب، وجدار الشهرة، وجدار الجموع التي كانت تهتف لهم. برزوا لله، لا يحجب أحدًا عن علمه حاجب، ولا تستر باطنه صورةٌ صنعت بعناية أمام الناس.

وليس معنى بروزهم أنهم كانوا خافين على الله، تعالى عن ذلك؛ فهو يعلم سرهم ونجواهم، وإنما برزوا من قبورهم إلى عرصات الحساب، وظهرت حقائقهم بعدما كانوا في الدنيا يسترونها بالأقنعة والأعذار. هناك لا يبقى للإنسان إلا حقيقته العارية وعمله الذي سبقه.

﴿جَمِيعًا﴾؛ المستكبر والضعيف، والمالك والمملوك، والزعيم والتابع، ومن ظن أنه يكتب التاريخ ومن لم يجد لنفسه فيه سطرًا. يجمعهم موقف واحد بعد أن فرقَهم في الدنيا مراتب موهومة. كانت المسافات بينهم واسعةً على الأرض، لكن القبر سوى مضاجعهم، والبعث أقامهم في ساحةٍ واحدة.

هناك يبدأ حوارٌ كان ينبغي أن يجري في الدنيا، لكنه تأخر حتى لم يعد له أثر في النجاة: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾.

هؤلاء هم الضعفاء الذين تنازلوا عن حقهم في التفكير والاختيار، واتخذوا من أصحاب القوة عقولاً بديلةً عن عقولهم. لم يكونوا بالضرورة ضعفاء الأجساد أو الأموال وحدها، بل ضعفاء الإرادة والبصيرة؛ رأوا الباطل فاستراحوا إلى تقليده، وسمعوا الحق فخافوا كلفته، وقالوا في أعماقهم: نحن مع الناس، فإن ضلوا فعليهم المسؤولية.

لكن التبعية لا تُسقط المسؤولية. قد يملك المستكبرون أدوات التضليل والإغراء والتهديد، وتكون جريمتهم أعظم، غير أن التابع الذي اختار السير خلفهم لا يستطيع أن يجعل من اختياره براءةً

كاملة. فإله و هبه عقلاً وفطرةً، وأرسل إليه النذير، وفتح أمامه باب السؤال؛ لكنه أثر راحة القطيع على مشقة الموقف.

لقد قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، وكأنهم يذكرون قادتهم بعقدٍ قديم: أطعناكم، ودافعنا عنكم، ورددنا كلماتكم، وهاجمنا خصومكم، وجعلنا أخطاءكم صوابًا، فهل ستردون لنا الجميل الآن؟

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَوْنَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

لم يطلبوا النجاة الكاملة؛ فقد انكسر أملهم حتى صاروا يرجون تخفيف شيءٍ من العذاب. أين الوعود القديمة؟ أين كلمات القادة الذين أوهموهم أنهم حصنٌ لا يُقتحم؟ أين الحماية التي باعوا من أجلها ضمائرهم؟ لقد انطفأت كلها عند أول مواجهة مع عذاب الله.

في الدنيا كان المستكبر يقول لأتباعه: أنا أضمن لكم المستقبل. وفي الآخرة لا يملك أن يضمن لنفسه لحظة راحة. كان يرسم لهم صورة القوة، فإذا به معهم في العجز نفسه. وهذا من أقسى انكشافات القيامة: أن ترى الذي علقت عليه مصيرك محتاجًا إلى النجاة مثلك، وأن تعرف أن اليد التي أمسكت بها لم تكن متصلةً بشيء.

فيأتي الجواب البائس: ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهَ لَهَدَيْتُكُمْ﴾.

يعترفون ضمناً بأنهم لم يكونوا يملكون هدايةً ليمنحوها لأحد. كانوا قادةً إلى الضلال، لا لأنهم أبصروا طريقاً آخر، بل لأنهم ضلوا فطلبوا رفقةً تؤنس ضلالهم وتضخم سلطانهم. ومن لا يملك نوراً لنفسه لا يستطيع أن يضيء به درب غيره.

وفي قولهم محاولة متأخرة للتعلل بالقدر، مع أنهم في الدنيا اختاروا العناد والإعراض بعد قيام الحجة. إن الله لا يظلم أحداً، ولا يمنع الهداية عمن صدق في طلبها؛ لكنهم لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما أحبوا العمى تركهم فيما اختاروه. فالهداية فضلٌ من الله، والعبد مأمورٌ أن يطلبها ويأخذ بأسبابها، لا أن يتخذ القدر حجةً على انحرافه.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرًا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾.

في الدنيا كان الصبر عبادةً تفتح أبواب الفرج، وكان الجزع ضعفاً يمكن علاجه بالرجوع إلى الله. أما هناك، بعد انقضاء زمن العمل، فقد استوى الصبر والجزع من جهة أنهما لا يغيران المصير. إنه صبر الاضطرار لا صبر الإيمان، واحتمال العاجز لا ثبات المحتسب.

﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾؛ لا مهرب ولا معدل ولا ملجأ. كانوا في الدنيا يهربون من الحقيقة إلى الشهوة، ومن الموعظة إلى السخرية، ومن المسؤولية إلى الزعيم، ومن صوت الضمير إلى ضجيج الجماعة؛ أما الآن فقد انتهت مساحات الفرار. يقفون أمام الحقيقة التي أجّلوها طويلاً، فإذا هي لا تقبل التأجيل.

هذه الآية تعيد بناء معنى المسؤولية الفردية. فالإنسان قد ينتمي إلى جماعة، ويتأثر ببيئة، ويخضع لضغط مجتمع؛ لكن قلبه لا يفقد فرديته أمام الله. سيُبعث وحده من حيث تبعة عمله، ويُسأل عما اختار، ولن يستطيع أن يختبئ داخل الجموع التي كان يختبئ فيها في الدنيا.

ومن أخطر ما يصيب الإنسان أن يؤجر عقله لغيره، ثم يتوهم أن تبعة الطريق تقع على من استأجره. أن يحب رجلاً فيجعل محبته دليل عصمته، أو ينتمي إلى جماعة فيرى أخطاءها حسنات، أو يتبع موروثةً فيغلق دونه باب المراجعة. إن الحق لا يُعرف بأسماء الرجال وحدها؛ وإنما تُعرف قيمة الرجال بقدر قربهم من الحق.

والآية لا تلغي أثر القادة ولا تسوّي في الإثم بين المضللّ والمضللّ، لكنها تنزع من الضعيف عذر التبعية المطلقة. تقول له: لا تمنح أحداً حقاً لم يمنحه الله إياه؛ لا تجعل بشراً يملك ضميرك، ولا تسلّم

إليه مفاتيح آخرتك، ولا تسمح لإعجابك به أن يعطل ميزان الوحي فيك.

فكل علاقة لا تقوم على الحق ستتكشف يوماً علاقة استخدام: المستكبر يحتاج إلى جمهورٍ يحمل عرشه، والتابع يحتاج إلى وهم يعفيه من المسؤولية. فإذا جاء يوم الحساب سقط العرش والوهم معاً، وبقي كلُّ منهما وحيداً أمام ما كسبت يداه.

الفصل التاسع

الخطبة الأخيرة للشيطان... حين تسقط أعذار الإنسان

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا آتَاكُمْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾.

إنها من أروع الخطب التي يرسمها القرآن: الشيطان يتكلم بعد أن
قُضي الأمر، وانتهى الحساب، وصار أهل الجنة إلى الجنة وأهل
النار إلى النار. لا يتحدث هذه المرة ليغوي، فقد انتهى زمن
الإغواء؛ بل يتحدث ليعلن براءته من الذين صدقوه، وليكشف لهم
متأخراً طبيعة اللعبة التي ربح بها أعمارهم وخسروا بها أنفسهم.

في الدنيا كان صوته همساً يختبئ وراء الشهوة، وتزييناً يتنكر في
صورة النصيحة، ووعداً يلبس ثوب الأمل. أما في الآخرة فيتكلم
بلا أقنعة؛ لأن الخديعة قد أدت مهمتها، ولم يعد محتاجاً إلى
تجميلها.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

يبدأ باعترافٍ يعرفه أتباعه الآن، لكنه كان محجوباً عن قلوبهم في الدنيا: الله وعد وعد الحق، والشيطان وعد فأخلف. كان أمام الإنسان وعدان: وعد الله الذي تؤيده الفطرة والوحي وآيات الكون، ووعد الشيطان الذي تؤيده شهوة الساعة؛ فاختار كثيرون الوعد الأقرب إلى اللذة، وإن كان أبعد عن الحقيقة.

وعد الله قد يطلب منك صبراً؛ لأن ثمرته كاملة في الآخرة، وإن عجل لك من آثارها في الدنيا ما يشاء. أما الشيطان فيبيعك العاجل، ويخفي الفاتورة المؤجلة. يقول لك: استمتع الآن، وتُب بعد ذلك. أظلم الآن، وستجد مخرجاً لاحقاً. تنازل قليلاً، فلن تخسر نفسك. وكل «لاحقاً» شيطانية حبلٌ يمتد حتى الموت، ثم ينقطع فجأة.

إن الشيطان لا يأتي الإنسان غالباً بعبارة صريحة: اكفر بربك واهلك نفسك؛ فهذا قبْحٌ تنفر منه الفطرة. لكنه يقوده عبر درجات ناعمة: هذه مرة واحدة، وهذا ذنب صغير، والناس كلهم يفعلون، ورحمة الله واسعة، والوقت طويل، والضرورة تبيح، والنية طيبة. يكسو الانحدار بألف اسم حتى يصل الإنسان إلى القاع وهو يظن أنه لم يغادر مكانه.

ثم يقرر الشيطان الحقيقة التي تهدم أعدار أتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

لم يكن يملك سلطان الإكراه. لم يمسك أيديهم بالقوة، ولم يسلبهم القدرة على الاختيار، وإنما دعاهم بالسوسوسة والتزيين فاستجابوا له. سلطانه سلطان الإغراء، لا سلطان الإجبار. وهو لا ينفذ إلى الإنسان إلا من أبوابٍ يجدها مفتوحة: هوى لا يقاوم، وكبر لا يُعالج، وحسدٌ يُغذى، وطمعٌ لا يشبع، وغفلةٌ تطول.

إنه يطرق الباب، لكن الإنسان هو الذي يفتحه. يشير إلى الطريق، لكن القدم البشرية هي التي تمشي. يزيّن القيد، لكن اليد هي التي تقبله. ولذلك لا يستطيع العاصي أن يحول الشيطان إلى عذر يُسقط عنه مسؤوليته.

وهذه الحقيقة تعيد للإنسان كرامته وخطورته معًا: كرامته لأنه ليس دميةً في يد إبليس، وخطورته لأنه مسؤول عن استجابته. أعطاه الله القدرة على أن يستعيز، ويذكر، ويقاوم، ويتوب؛ فإذا سلم نفسه للسوسوسة فقد أسهم بإرادته في صناعة مصيره.

﴿فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ﴾. يا لها من صفةٍ تأتي في اللحظة التي لا يفيد فيها اللوم! طوال الدنيا كان الشيطان يزيّن للإنسان أن

يلوم غيره: أباه، وبيئته، وفقره، وخصومه، والظروف، والقدر. لم يسمح له أن يقف مع نفسه وقفة مسؤولية صادقة؛ لأن أول طريق التوبة أن تقول: أنا أخطأت.

أما بعد قضاء الأمر، فيردُّ إليه اللوم كاملاً: لوموا أنفسكم. كأن الشيطان استعملهم مرتين: أغراهم أولاً بأن يهربوا من مسؤوليتهم، ثم تركهم أخيراً وحدهم تحت ثقلها.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي﴾؛ لا أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي. انتهى التحالف الذي جمعهم على المعصية، وانكشف أنه لم يكن مودة، بل شراكة في الهلاك. الشيطان لا يحب أتباعه؛ إنه يريد لهم رفقةً في المصير الذي اختاره لنفسه، ثم يتبرأ منهم حين يبلغون معه النهاية.

إن كل رابطة تقوم على معصية الله تحمل بذرة هذا التبرؤ. قد يضحك أصحابها معاً، ويتبادلون المصالح، ويشد بعضهم أزر بعض في الباطل؛ لكنهم إذا رأوا العاقبة انقلبت الألفة خصومةً، وصار كل طرف يتمنى لو يحمل الآخر عنه شيئاً من العذاب.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾. يتبرأ الشيطان من إشراكهم إياه في طاعةٍ لا تليق إلا بالله؛ فهو لم يكن مستحقاً أن يُطاع في

معصيته، لكنهم استجابوا له واتخذوا إغواءه قائدًا. وكفره هنا تبرؤ وإنكارٌ لذلك الإِشْرَاق، لا إيمانٌ ينفعه؛ فقد فات وقت النجاة.

ثم يأتي الحكم الإلهي: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ظلّموا أنفسهم حين صرفوها عن طريق نجاتها، وظلموا حق الله حين أطاعوا عدوه، وقد يظلمون الخلق حين تتحول وساوس الشر فيهم إلى أفعال تتعدى إلى الناس.

إن هذه الخطبة ليست وصفًا للمستقبل وحده، بل إنقاذٌ للحاضر. فقد كشف الله لنا الآن ما سيقوله الشيطان يومئذ، حتى لا نكون من المخدوعين به. أسمعنا اعترافه قبل وقوعه، وأطلعنا على خيانتته قبل أن تتم، ووضع نهاية القصة في أيدينا ونحن لا نزال قادرين على تغيير أدوارنا فيها.

فكلما جاءك وعدٌ داخلي يزيّن معصيةً، تذكر هذه الخطبة. كلما قال لك الصوت الخفي: لن يحدث شيء، تذكر قوله: ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. وكلما أغراك بإلقاء مسؤوليتك على غيرك، اسمعه وهو يقول: ﴿وَلَوْ مَوْأَأْنَفُسُكُمْ﴾.

والنجاة ليست في أن تزعم أنك لن تسمع الوسوسة؛ فذلك باب امتحان الإنسان، وإنما في ألا تجعل كل صوتٍ في داخلك قائدًا.

اعرض الخاطر على الوحي، واستعذ بالله، واقطع الخطوة الأولى؛
فإن النار الكبيرة كثيرًا ما تبدأ بشرارة سمح لها القلب أن تبقى.

الفصل العاشر

على الضفة الأخرى... سلامٌ يليق بالذين صبروا

قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

بعد الحوار المرير بين الضعفاء والمستكبرين، وبعد خطبة الشيطان التي تقطر خذلاً، تفتح السورة نافذةً على الضفة الأخرى. هناك لا خصومة ولا تبرؤ ولا لوم؛ بل جناتٌ وأنهار وخلود وسلام.

﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. جمع الله بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الإيمان الحي لا يبقى فكرةً ساكنةً في القلب، بل يتجسد أثراً في الحياة. والعمل الصالح لا يبلغ كمال قبوله إلا إذا انبثق من أصل الإيمان وقصد به وجه الله.

ليس الإيمان دعوى تُعفي الإنسان من العمل، وليس العمل حركةً تغنيه عن ربه. القلب يؤمن، والجوارح تصدق؛ والباطن يستضيء، والظاهر يثمر. فإذا افترق الاثنان اختل البناء: إيمانٌ لا

يغيّر السلوك يحتاج إلى مراجعة صدقه وكماله، وعمل لا يتصل بالله معرض لأن يصير رمادًا تذروه الرياح.

﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ليست جنة واحدة، بل جنات؛ تنوع في النعيم لا يبلغ الخيال مداه. وتجري الأنهار من تحتها، فلا خوف من جفاف، ولا تعب في طلب ماء، ولا قلق من زوال الخصب. كل شيء فيها مطمئن إلى مصدره، دائم بإدانة الله له.

والنهر الجاري صورة للحياة المتجددة. في الدنيا تخشى النفس على الجميل من الانتهاء؛ فخلف كل لقاء فراق، وخلف الشباب شيخوخة، وخلف الامتلاء نقص، وخلف ضحكة احتمال دمة. حتى أسعد لحظات الدنيا يمر فيها ظلُّ الزوال، فيفسد عليها صفاءها الكامل.

أما هناك فقد جاءت الكلمة التي تخلع جذور الخوف: ﴿خُلِدِينَ فِيهَا﴾.

لا موت يتربص، ولا فراق ينتظر، ولا مرض يتسلل إلى الجسد، ولا زمن يأكل أطراف النعمة. الخلود ليس طولاً للمدة فحسب، بل أمانٌ كامل من النهاية. وكل نعيم لا يخشى زواله يصير نعيماً آخر في مذاقه ومعناه.

﴿يُؤْذِنُ رَبِّهِمْ﴾. دخلوا الجنة بفضل الله ورحمته وإذنه، لا لأن أعمالهم تستقل بإيجاب الحق عليه. أعمالهم أسبابٌ للنجاة، لكنها لا تستغني عن الرحمة؛ فحتى الطاعة توفيقٌ من الله، وحتى الثبات عطاء، وحتى القلب الذي أخلص كان يحتاج في كل لحظة إلى حفظ ربه.

ولهذا لا يدخل أهل الجنة دخول المنتصر المتعالي الذي يرى أنه انتزعها بقوته، بل دخول العبد الممتن الذي يعلم أن فضل الله أحاط به من أول الطريق إلى نهايته: هداة، وأعانته، وغفر تقصيره، وقبل سعيه، ثم أدخله دار كرامته.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

السلام هو الكلمة التي تناسب الجنة؛ لأنها دار السلام. سلامٌ من الله، وسلامٌ من الملائكة، وسلامٌ يتبادلونه أهلها. ليس مجرد لفظ تحية، بل حقيقة تملأ الوجود كله: سلام من الخوف، وسلام من الحزن، وسلام من الحسد، وسلام من الخيانة، وسلام من سوء الفهم، وسلام من كل ذكرى موجعة.

كم من إنسانٍ في الدنيا يسمع التحية، وقلبه لا يشعر بالأمان! وكم من مجلسٍ تتردد فيه كلمة السلام، بينما تضرر النفوس خصومةً أو حسدًا! أما سلام الجنة فليس صوتًا يخالف الباطن؛ بل ظاهرٌ يطابق القلوب التي نزع الله ما فيها من غل.

وفي الجنة يجد المؤمن تمام السلام الذي كان يبحث عنه في الدنيا. كان يخاف أن يفقد من يحب، فلا فقد هناك. وكان يتألم من ظلم لا يملك دفعه، فلا ظلم هناك. وكان يضيق من نفسه حين تنازعه الأهواء، فلا معصية هناك. وكان يشعر بالغربة بين أهل الباطل، فلا غربة في دارٍ كل من فيها من أهل الرضا.

وما أجمل مجيء هذه الآية بعد تبرؤ الشيطان والمستكبرين! هناك صحبةٌ انتهت إلى اللوم، وهنا صحبةٌ تبدأ بالسلام ولا تنتهي. هناك وعدٌ كاذب أفضى إلى العذاب، وهنا وعد الحق أفضى إلى الجنة. هناك قالوا: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾، وهنا لا يريد أحدٌ محيصًا عن دار الخلود.

والآية تزرع في قلب المؤمن ميزانًا جديدًا للخسارة والنجاح. قد يدفع في الدنيا ثمنًا لاستقامته، وقد يفقد منفعةً لأنه رفض الحرام، أو يخسر قرب أناس لأنه لم يشاركهم الباطل، أو يتحمل وحشة

الطريق حين يقل السائرون. لكن ما الذي خسره حقاً من انتهى إلى السلام؟

إن لحظة واحدة من أمان الجنة تمحو ذاكرة الألم، فكيف بخلود لا ينتهي؟ وكل دمة حفظت المؤمن عن المعصية، وكل شهوة قاومها، وكل كلمة حق دفع ثمنها، وكل صبر لم يره الناس—سيجد معناه هناك، حين يقال له في دار لا خوف فيها: سلام.

فلا ينبغي أن يقيس المؤمن صدق الطريق براحة اللحظة. قد يكون طريق الجنة شاقاً على القدم، لكنه مطمئن للروح؛ وقد يكون طريق النار مفروشاً باللذات، لكنه يسرق من القلب سلامه قبل أن يبلغه عذابه.

ومن ذاق شيئاً من سلام الطاعة في الدنيا عرف أن الجنة تبدأ بظلمها في القلب قبل أن يدخلها الجسد. في السجدة سلام، وفي التوبة سلام، وفي ترك الحرام سلام، وفي رد المظلمة سلام. إنها إشارات صغيرة من الدار الكبرى، يرسلها الله إلى عبده ليقول له: امض؛ فأخر هذا التعب تحية لا يعقبها خوف: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

الفصل الحادي عشر

شجرة تصعد إلى السماء... الخلود الذي تصنعه الكلمة الطيبة

قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۚ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۚ يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۖ﴾

بعد أن عرضت السورة مصائر الجماعات والأمم، تأخذنا إلى شيء يبدو صغيراً في حجمه، هيئاً في خروجه، لكنه قادر على صناعة المصير: الكلمة.

الإنسان كائنٌ تبنيه الكلمات وتهدمه. كلمةٌ توقظ أمة، وكلمةٌ تخدرها؛ كلمةٌ تصلح بين قلبين، وكلمةٌ تفتح بينهما جرحاً يمتد أعواماً؛ كلمةٌ تهدي إنساناً، فيمضي أثرها في ذريته من بعده، وكلمةٌ تضل جماهير، فتتحول الحروف إلى دماء وآلام.

ولهذا لم يجعل الله الكلمة صوتًا عابرًا في الهواء، بل صوّرها شجرةً كاملة: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾.

وأصل الكلمة الطيبة كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»، ويلحق بها كل قول صالح صادق متفرع عنها، من ذكرٍ ودعوةٍ ونصحٍ وعدل. إنها الكلمة التي تعيد الكون في وعي الإنسان إلى مالكة الواحد، وتحرره من الأرباب المتفرقة، وتمنح أعماله أصلًا تتصل به.

هي طيبة في مصدرها؛ لأنها من الحق. وطيبة في معناها؛ لأنها تدل على الله. وطيبة في أثرها؛ لأنها تطهّر القلب والحياة. وطيبة في مآلها؛ لأنها تقود صاحبها إلى دار السلام.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾. فالإيمان الحق لا يعيش على سطح النفس، ولا يتبدل مع كل ريح. ينزل إلى الأعماق كما تنزل الجذور في الأرض، فيمسك الإنسان حين تهتز حوله الأشياء. قد تضربه الشبهة، أو تضغط عليه الشهوة، أو يتسلط عليه الخوف؛ لكنه يعود إلى أصلٍ مستقر: الله ربي، والحق حق، والآخرة آتية، وما عند الله خير وأبقى.

الثبات لا يعني غياب الأسئلة أو انعدام الألم، بل أن تكون تحت الأسئلة أرضٌ لا تنهار، وتحت الألم عقيدةٌ لا تنطفئ. فالشجرة

الثابتة تتحرك أغصانها مع الريح، لكنها لا تغادر تربتها. وكذلك المؤمن: قد يقلق، ويبكي، ويتعب، لكن قلبه لا يقتلع من ربه.

﴿وَفَرَّعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. بين الأرض والسماء تمتد رحلة الكلمة الطيبة؛ أصلها في القلب ثابت، وأثرها يرتفع. ليست العقيدة الصحيحة انسحابًا من الحياة، بل شجرةً تدخل جذورها في أعماق الإنسان، ثم تصعد فروعها في الأخلاق والعمل والرحمة والعدل.

كلما صحَّ الأصل سمت الفروع. فإذا استقر التوحيد في القلب حرره من الرياء، وإذا أيقن بالآخرة صان يده عن الظلم، وإذا عرف أن الرزق من الله لم يبيع كرامته لمخلوق، وإذا أحب ربه أحسن إلى عباده. لا تبقى «لا إله إلا الله» جملةً في الفم، بل تتحول نظامًا داخليًا يعيد ترتيب الحياة كلها.

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. الشجرة الطيبة كثيرة النفع، دائمة العطاء. وكذلك الإيمان: لا يثمر في المسجد وحده، بل في البيت والسوق وموقع المسؤولية وساعة الخصومة. يثمر حين تملك فتعدل، وحين تغضب فتكظم، وحين تُؤذى فلا تظلم، وحين تُعطى فتشكر، وحين تُمنع فتصبر.

وقد يقول المؤمن كلمة صادقة ثم ينساها، لكنها تقع في قلب إنسان فتنبت، ثم يحملها ذلك الإنسان إلى غيره، وتتفرع منها أعمال لا يعرف قائلها عددها. هكذا تكون للكلمة الطيبة حياة أطول من عمر صاحبها؛ يوارى الجسد في التراب، ويبقى الفرع يصعد في السماء.

لكن الشجرة لا تثمر باستقلالها: ﴿يَا ذُنَّ رَبِّهَا﴾. فحتى الأرض الطيبة والبذرة الصالحة والماء والنور لا تستغني عن إذن الله. وهذا يحمي صاحب الكلمة من الغرور بأثره؛ فهو يبذر ويعتني، لكن الله هو الذي يفتح لها القلوب، ويكتب لها القبول، ويجعل منها ثمرًا في الوقت الذي يشاء.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. فالمثل ينقل المعنى من التجريد إلى المشهد، حتى يكاد القلب يراه. وكلما وقعت عين المؤمن على شجرة راسخة، ينبغي أن يتذكر إيمانه: كيف حال جذوره؟ وهل ارتفع فرعاه؟ وهل يطعم الناس من ثمره، أم بقي اسمًا بلا أثر؟

وفي الجهة المقابلة: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وأصل الكلمة الخبيثة كلمة الكفر، ويدخل في فروعها كل قول باطل يصد عن الله أو يفسد حياة الناس. قد ترتفع هذه الكلمة في زمنٍ من الأزمنة، وتملأ الفضاء ضجيجًا، وتملك المناير والأدوات؛ لكنها بلا أصل يمدّها بحقيقة البقاء.

﴿أَجْنُتْ﴾؛ اقتلعت من جذرها، فلم يبق لها اتصالٌ بالأرض. قد تبدو قائمة لحظةً في يد من يحملها، لكنها ليست شجرةً نامية، وإنما حطام ينتظر أول ريح. ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾؛ لا ثبات لها في الحجة، ولا طمأنينة في القلب، ولا بقاء محمودًا في الآخرة.

الباطل يحتاج دائمًا إلى ضجيج يحمله؛ لأنه لا يستطيع أن يقف بنفسه. يحتاج إلى تكرارٍ متواصل حتى يظنه الناس حقيقة، وإلى قمع السؤال حتى لا تنكشف هشاشته، وإلى تخويف المخالف حتى لا يظهر عجزه. أما الحق ففيه من قوة الأصل ما يجعله قادرًا على البقاء وإن حوصر.

وقد تنتشر الكلمة الخبيثة أسرع من الطيبة، كما ينتشر الدخان أسرع من نمو الشجرة. لكن السرعة ليست دليل الحياة. الدخان يملأ الأفق في دقائق ثم يتلاشى، أما الشجرة فتعمل في صمت، وتبني جذورها ببطء، ثم تبقى أجيالًا وتمنح الثمر والظل.

وبعد المثليين يأتي أثر الكلمة الطيبة في أخطر ساعات الإنسان: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

القول الثابت هو كلمة التوحيد والإيمان. يثبت الله بها المؤمن في الدنيا عند الشبهات والفتن، وعند الموت، ويثبتته في القبر عند السؤال، وفي مواقف الآخرة. ما كان في قلبه أصلاً يصير له ثباتاً حين تنزلزل الأقدام.

الثبات عطية من الله، ولذلك لا يغتر المؤمن بقوة معرفته أو طول عبادته؛ بل يسأل ربه دائماً أن يثبت قلبه. فالقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتنة قد تأتي من باب لم يحسبه الإنسان. وليس الخطر أن تعرف الحق فحسب، بل أن تبقى عليه حتى تلقى الله.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾. لما ظلموا أنفسهم بالكفر والعناد، لم يوفقوا للثبات، فتنقلب بهم الأهواء، ويعيشون بلا أصل يجمع شتاتهم. كلما تغيرت المصلحة تغير موقفهم، وكلما تبدل الجمهور أعادوا تشكيل حقيقتهم. يملكون مرونةً ظاهرها الذكاء، وباطنها فقدان القرار.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لمشيئته، وهو سبحانه لا يظلم أحداً. يثبت أهل الإيمان بفضلته، ويخذل الظالمين بعدله، وكل ذلك جارٍ على علمٍ وحكمة.

وهكذا تضع السورة الإنسان أمام سؤال الجذور: ما الكلمة التي تقوم عليها حياتي؟ ما الحقيقة التي إذا تزلزل كل شيء بقيت في قلبي؟ وهل كلماتي فروعٌ لشجرة الإيمان، أم دخانٌ يتبدد بانتهاء المجلس؟

إن الإنسان لا يُعرف فقط بما يملكه، بل بما يقوله حين يخاف، وما يقوله حين يغضب، وما يقوله حين يستطيع الكذب وينجيه الصدق بصعوبة. في تلك اللحظات يظهر أصل الشجرة: أهو ثابت في أرض الإيمان، أم كان مجرد زينةٍ معلقة على سطح الحياة؟

فازرع كلماتك كما يزرع من يعلم أنه قد يعود يوم القيامة فيجدها غابة. كلمةٌ طيبة قلتها لقلب مكسور، أو حقٌ شهدت به في ساعة خوف، أو ذكرٌ علّمته طفلاً، أو علمٌ بثنته بإخلاص؛ كل ذلك بذورٌ صغيرة، لكن ربها قادر أن يرفع فروعها إلى السماء، وأن يجعل ثمارها تصل إليك بعد أن ينقطع عن الدنيا صوتك.

الفصل الثاني عشر

الذين بدلوا نعمة الله كفراً... حين يقود الامتياز إلى الهاوية

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۗ﴾.

بعد أن عرضت السورة الشجرة الطيبة التي تشكر أصلها فتمدُّ فروعها إلى السماء، تعرض لنا قومًا تسلموا النعمة ثم بدلوا كفراً؛ كأنهم أخذوا الماء الذي كان ينبغي أن يحيي أشجارهم، فصبَّوه على نار الجحود حتى أحرقتهم وأحرقت من سار خلفهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ۗ﴾.

والآية تشمل في معناها كل من صنع ذلك، وقد نزلت في كفار قریش على ما جاء عن عدد من السلف؛ فقد جاءتهم أعظم نعمة: رسولٌ منهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، وكتابٌ بلسانهم، وبيتٌ آمن، ومكانةٌ بين العرب، ثم قابلوا النعمة بالتكذيب والمحاربة والصد عن سبيل الله.

لم يقل: كفروا بنعمة الله فحسب، بل قال: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾. والتبديل يوحي بأن النعمة كانت بين أيديهم مادةً قابلةً لأن تصير شكرًا وهديً وعمرانًا، لكنهم أخرجوها من وجهتها، وحولوها إلى سبب للهلاك. فالنعمة لا تحمل مصيرها وحدها؛ إنما يحدده الجواب الإنساني عنها.

قد تتحول القوة إلى عدل، وقد تتحول إلى استبداد. وقد يصير العلم هدايةً للناس، وقد يصير وسيلةً لتزييف وعيهم. وقد يصبح المال بابًا لإغاثة الملهوف، وقد يصبح حائطًا يعزل صاحبه عن آلام الخلق. النعمة واحدة، لكن القلب هو الذي يمنحها اتجاهها الأخلاقي.

إن كفر النعمة ليس مجرد ألا يقول الإنسان: الحمد لله؛ بل قد يقولها بلسانه، ثم يجعل النعمة جنديًا في جيش معصيته. يحمد الله على المال ثم يأكله من حرام، ويحمده على المنصب ثم يظلم به، ويحمده على العلم ثم يتعالى به، ويحمده على الكلمة ثم يستخدمها في تضليل الناس. ذلك شكرٌ لفظي يكذّبه مسار النعمة في الحياة.

ولأن الانحراف إذا صدر عن القادة لم يبق فردياً، قال تعالى: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾. لم يهلكوا وحدهم، بل أنزلوا أقوامهم منزل الهلاك. كانوا يملكون الكلمة والنفوذ، فاستعملوهما في قيادة الناس بعيداً عن الله.

و«البوار» هو الهلاك والفساد والكساد. دارٌ لا تنمو فيها حياة، ولا يرجى منها خروج، ولا تصلح للإقامة. وقد يظن القادة المضلون أنهم يقودون قومهم إلى المجد، بينما هم يهبطون بهم درجةً بعد درجة إلى دار البوار.

وهنا تتجلى خطورة القيادة: فخطأ الإنسان في نفسه قد يهدم فرداً، أما خطأ من تتبعه الجموع فقد يتحول إلى قدر اجتماعي كامل. كلمة القائد لا تموت عند فمه؛ تتوزع في آلاف الأفواه، وتتجسد قرارات وسلوكاً وثقافة. ولهذا يثقل حساب من ضل وأضل، ومن سنّ للناس طريقاً في الباطل فحمل من أوزارهم.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ هكذا تفسر السورة دار البوار، فلا تتركها غامضة. يصلون حرها ويقاسون عذابها؛ لأنها كانت النهاية التي قادت إليها خطواتهم، وإن غطّوا الطريق إليها بشعارات القوة والمصلحة وحماية الموروث.

﴿وَبَيْتَ الْقَرَارِ﴾. كانوا يبحثون عن قرارٍ يثبت سلطانهم في الدنيا، فإذا القرار الأخير جهنم. كانوا يخشون أن يزحزحهم الإيمان عن مواقعهم، فتمسكوا بالموقع القصير وخسروا المصير الأبدي. وما أتعس من يبيع دار القرار من أجل مقعد لا يضمن أن يبقى فيه إلى المساء!

ثم تكشف الآيات جذر التبديل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

الأنداد هم الأمثال والنظراء الذين يُصرف لهم شيء من حق الله في العبادة والطاعة المطلقة والمحبة والتعظيم. وليس الندُّ بالضرورة صنماً من حجر يركع أمامه الجسد؛ فقد يكون هوىً يطاع حين يخالف أمر الله، أو بشراً يُرفع قوله فوق الوحي، أو قوةً يتوهم الإنسان أنها تملك مصيره استقلالاً.

الشرك في جوهره اضطرابٌ في مركز القلب. بدل أن تتجمع الوجهة عند الله، تتوزع النفس بين أرباب متنازعة: هذا تخافه، وذاك ترجو منه، وثالث تبيع الحق لرضاه، ورابع تجعل قيمتك في نظرتك إليك. وكلما تكاثرت الأنداد تمزقت الروح؛ لأنها خلقت لتتجه إلى إله واحد.

﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾. قرأها القراء بالضم بمعنى إضلال غيرهم، وبالفتح بمعنى أن عاقبة فعلهم الضلال؛ والمعنيان يلتقيان في تصوير جريمة لا تقف عند صاحبها. يصنعون الأنداد، ثم يزيّنونها للناس، ويحولونها إلى ثقافة عامة، حتى يبدو التوحيد غريباً في عالم يتكاثر فيه العبيد والأرباب.

ثم يأتي الأمر الذي يحمل في ظاهره الإهمال، وفي باطنه الوعيد: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

ليس هذا إذناً بالمعصية، وإنما تهديد لمن أصرَّ عليها: تمتعوا زمناً قصيراً، فإن كل متاع منقطع، والمصير لا يتغير بزينة الطريق. إن أخطر ما في المتاع الدنيوي أنه قد يخدع صاحبه عن نهايته؛ يظن أن حلاوة اللحظة شهادة بصحة الاختيار، وأن تأخر العقوبة دليل على النجاة.

لكن الإهمال ليس إهمالاً، واللذة ليست برهان الرضا، واتساع الدنيا على إنسان لا يعني أن طريقه مستقيم. قد تكون النعمة استدراجاً إذا لم ترده إلى الله، وقد يكون استمرار المتاع زيادةً في إقامة الحجة عليه.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾؛ ليس المهم أين تقيم الآن، بل إلى أين تصير. فالطريق لا يُحكم عليه بأوله وحده، والطعام لا يُمدح بحلاوته إذا كان آخره سمًّا. والعاقل لا يسأل الشهوة: ماذا ستمنحيني هذه الساعة؟ بل يسألها: إلى أين ستقوديني؟

إن هذه الآيات تنبه كل صاحب نعمة إلى أنه يقف أمام طريقين: إما أن يردَّ النعمة إلى الله شكرًا، فتكون جسرًا إلى رضوانه، وإما أن يبدلها كفرًا، فتصير حجةً عليه. ليس في النعم حياةً كامل؛ فهي إما أن تقرب القلب أو تزيد حجابهِ، وإما أن تعمّر الحياة بالحق أو تُستخدم في إقامة دار البوار.

وما أقسى أن تكون النعمة هي المادة التي يصنع منها الإنسان شقاءه! عينٌ وهبها الله له فيملؤها بالحرام، وعقلٌ أضاءه له فيستخدمه في اختراع الشبهات، ولسانٌ أقدره على البيان فيسخره للكذب، وسلطةٌ مكّنه بها ليقوم العدل فيقيم بها الظلم. هناك لا يستطيع صاحبها أن يقول: لم تُعطني؛ بل تقف النعم نفسها شهودًا على ما صنع بها.

فالشكر ليس هامشاً على الحياة، بل طريقة إدارة الحياة كلها. أن تعرف ممن جاءك العطاء، ولماذا جاءك، وفي أي طريق ينبغي أن يمضي. فإذا أجبت عن هذه الأسئلة بصدق، تحولت النعمة في يدك من اختبارٍ تخشاه إلى عبادةٍ ترجو ثوابها.

الفصل الثالث عشر

عبادة في الخفاء وعطاء بلا ضجيج... قبل أن يُغلق سوق العمل

قال تعالى: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَافٌ﴾.

وسط مشاهد الكفر والأنداد ودار البوار، يلتفت الخطاب إلى المؤمنين بنداء يفيض قرباً: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أضافهم الله إلى نفسه: ﴿عِبَادِيَ﴾. وما أعذبها من إضافة! إنهم لم يتحرروا من العبودية ليعيشوا بلا سيد، بل تحرروا من عبودية المخلوقين بعبوديتهم للخالق. وليس أشرف للإنسان من أن ينسبه الله إليه عبداً؛ لأن هذه العبودية لا تسلبه كرامته، بل تردّها إليه، ولا تصغّره، بل تحرره من كل ما هو أصغر منه.

والإيمان ليس لقباً يعلّق على الاسم، بل حياة لها عمودان ظاهران في هذه الآية: الصلاة التي تصل العبد بربه، والإنفاق الذي يصله بعباد الله. فالإيمان الذي لا يصعد إلى الله في صلاة، ولا يمتد إلى الخلق في رحمة، يحتاج صاحبه أن يسأل عن أثره في القلب.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. لم يقل: يؤدوا الصلاة فحسب، بل يقيموها؛ والإقامة تحمل معنى العناية بحدودها وأوقاتها وأركانها وخشوعها، حتى تقف الصلاة في الحياة كما يقف البناء على أصوله. الصلاة ليست حركات تُلقى على هامش اليوم، بل موعدٌ يعاد فيه بناء الإنسان بعدما بعثرته مشاغل الدنيا.

يقف العبد بين يدي الله خمس مرات، لكيلا تبتلعه الأنداد التي تملأ يومه. يقول: الله أكبر؛ فتصغر في قلبه القوى التي كانت ترهبه، والأموال التي كانت تغريه، والصور التي كانت تستعبده. والسجود يضع الجبهة في التراب، لكنه يرفع الروح من ذل التعلق بغير الله.

وكل صلاة حقيقية خروجٌ صغير من الظلمات إلى النور. يدخلها الإنسان وقد علقت بقلبه غبارُ السوق والخصومات والخوف والطمع، فيقف بين يدي ربه، ويقرأ كلامه، وينحني له وحده، ثم يخرج وقد استردَّ مركزه. لم تعد الدنيا إلهاً، ولم يعد البشر يملكون كل شيء، ولم يعد الهُم هو الحقيقة الوحيدة.

ثم يأتي العمود الثاني: ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

لم يقل: مما ملكوا؛ بل ردَّ المال إلى أصله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾. فما في يدك لم تخلقه، والقوة التي سعيت بها ليست من صنعك، والفرصة التي

فُتِحَتْ لَكَ لَمْ تَكُنْ خَاضِعَةً لِقُدْرَتِكَ وَحَدَهَا. أَنْتَ مُسْتَخْلَفٌ فِي رِزْقِ اللَّهِ، وَالْإِنْفَاقِ رَدُّ بَعْضِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْوَجْهَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا مَالُهَا.

وهذا التعبير يداوي خوف النفس من النقص؛ فالذي رزق أول مرة قادر أن يرزق بعد العطاء. حين ينفق المؤمن لا يشعر أنه يقتطع من منطقة لا يصل إليها مدد الله، بل ينقل رزقاً من يدٍ إلى يدٍ بأمر الرازق. وما نقص مالٌ من صدقةٍ في ميزان البركة والثواب، وإن نقص عدده الظاهر.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؛ ينفقون في الحالتين بحسب ما تقتضيه الحكمة. فالسرُّ أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن أذى المحتاج، وقد تكون العلانية أنفع للاقتداء وتشجيع الناس إذا سلم القلب من الرياء. ليست الفضيلة محصورة في الصورة، بل في النية والمصلحة.

وللصدقة السرية جمالٌ خاص: خيرٌ يخرج في الظلام فلا يراه إلا الله، ويُدُّ تصل إلى محتاج دون أن تجرح كرامته، وقصةٌ لا يعرفها الجمهور لكنها مكتوبة في السماء. في عالمٍ يتسابق فيه الناس إلى تصوير عطائهم، يبقى للعطاء الخفي طعم العبودية الخالصة: أن يكفيك علم الله حتى لا تبحث عن شاهد آخر.

لكن العلانية قد تكون عبادةً كذلك إذا قصد بها صاحبها إحياء سنة الخير، وأمن على قلبه، ولم يمتنَّ أو يؤذ. فرب عمل خفي أفسده إعجاب صاحبه بنفسه، ورب عمل معلن صحَّحه إخلاصٌ صادق. المدار على القلب الذي يعلم الله سرَّه، وعلى الحكمة التي تضع العمل في موضعه.

ثم يعجّل الخطاب المؤمنين بالعمل: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلٍّ﴾.

ما دمتم في الدنيا فالسوق مفتوح: تستطيعون أن تقدّموا وتستدركوا وتتوبوا وتضاعفوا الزاد. لكن يومًا سيأتي يُغلق فيه سوق العمل، فلا بيعٌ تستطيع به النفس أن تشتري نجاتها، ولا صداقة تنفع بمعزل عن الإيمان وإذن الله.

﴿لَا بَيْعَ فِيهِ﴾؛ كل وسائل التعويض المادية التي يعرفها الإنسان ستسقط. في الدنيا إذا خسر شيئًا أمكنه أن يدفع ثمنًا فيسترده، وإذا وقع في ضيق اشترى مخرجًا بماله. أما هناك، فالكون كله ليس سوقًا، والعمر الذي كان رأس المال قد انتهى.

﴿وَلَا خِلٍّ﴾؛ لا صداقات ومحبات تنقذ أصحابها لمجرد قربهم بعضهم من بعض. والخلال جمع خُلَّة، وهي المودة والصداقة. لقد

اعتاد الإنسان أن يستند إلى شبكة علاقاته: صديق يفتح باباً، وقريب يدفع ضرراً، وصاحب جاه يتوسط. لكن في ذلك اليوم لا تنفع العلاقة إلا إذا قامت على الإيمان وأذن الله في نفعها؛ أما صحبة الباطل فتتحول خصومةً وندامة.

إن الآية لا تحتقر الصداقة الصالحة؛ فالخلة في الله من أجل النعم، لكنها تحطم الوهم الذي يجعل الإنسان يتكل على انتمائه أو قرابته بدل عمله. لا يكفي أن تكون قريباً من صالح ما لم تسلك طريق الصلاح، ولا ينجيك حب المؤمنين إن كنت تصرُّ على حرب ما آمنوا به.

وتجمع الآية الصلاة والإنفاق أمام يوم لا بيع فيه ولا خال؛ لأن الصلاة تصلح علاقة العبد بالله، والإنفاق يصلح علاقته بالمال والناس. بالصلاة يتحرر من الكبر، وبالإنفاق يتحرر من الشح؛ وبالاثنين يستعد للقاء لا ينفع فيه قلبٌ متعلق بغير الله.

إن كل أذان يسمعه الإنسان إعلانٌ بأن السوق ما زال مفتوحاً، وكل محتاج يمر به فرصةٌ أرسلت إلى بابه، وكل قدرة على السجود علامةٌ أن زمن التدارك لم ينتهِ. وسيأتي يوم يتمنى فيه أقوامٌ سجدةً واحدة أو صدقةً واحدة، فلا يجدون إلى العمل سبيلاً.

فلا تؤجل الصلاة حتى يفرغ يومك؛ ففعل يومك لا يفرغ إلا بانتهاء
عمرك. ولا تؤجل العطاء حتى تستغني؛ فإن النفس كلما كثر ما
عندها اخترعت حاجاتٍ جديدة. اعبد الله بما تستطيع الآن، وأنفق
مما رزقك الآن؛ فالآخرة لا تستقبل الأمانى التي تأخرت، وإنما
تستقبل الأعمال التي سبقت.

الفصل الرابع عشر

كونٌ يعمل في خدمتك... فإلى من يمضي شكرُك؟

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

تأخذنا الآيات في جولة كونية تبدأ من أوسع المشاهد: السماوات والأرض، ثم تهبط بقطرة الماء إلى الثمر، وتمر بالسفن والأنهار والشمس والقمر، ثم بالليل والنهار، حتى تنتهي إلى قلب الإنسان الذي يعيش وسط هذا الفيض وقد ينسى صاحب الفضل كله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ﴾. يبدأ التعريف بالله من آثار قدرته المحيطة بالإنسان. السماء التي تظلك، والأرض التي تحملك، ليستا خلفيةً محايدة لحياتك؛ إنها أول سطرين في كتاب النعمة. قبل أن تسأل الله شيئاً، كان قد أعد لك مكان الوجود كله.

إن الإنسان حين يعد النعم يبدأ غالباً بما وصل إلى يده مباشرة: مال، وببيت، وصحة. لكنه ينسى البنية الكبرى التي تجعل هذه النعم ممكنة: أرضٌ مستقرة، وسماءٌ محفوظة، وهواءٌ صالح للحياة، ونظامٌ دقيق لا يختل. نحن لا ندفع كل صباح ثمن شروق الشمس، ولا نتولى إبقاء الأرض في مدارها، ولا نسهر على حفظ قوانين الكون؛ ومع ذلك ننتفع بها كأنها حق طبيعي لا يستدعي الحمد.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾. الماء ينزل بسيطاً في منظره، لكنه يحمل سرَّ الحياة. قطرة شفافة لا لون لها، ثم تدخل الأرض فتخرج منها ألواناً لا تنتهي، ومذاقاتٍ متباينة، وروائح وأشكالاً، مع أن الماء واحد والتربة قد تتجاور.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾. لستم أنتم الذين أمرتم البذرة أن تنشق، ولا رسمتم للغصن طريقه، ولا صبغتم الثمرة بلونها، ولا وضعتم فيها مقدار الحلاوة. أنتم تحرثون وتزرعون، لكن وراء جهدكم سرّاً لا تملكون صنعه: سر الحياة الذي لا يودعه إلا الله.

وفي قوله: ﴿لَّكُمْ﴾ لمسة قرب وعناية. هذه الدورة الكونية الهائلة تنتهي إلى مائدتك: سحبٌ يتحرك، وماءٌ ينزل، وأرضٌ تتفتح، وجذورٌ تمتص، وشمسٌ تمنح الضوء، ثم تصل ثمرة إلى يدك. كم

من جنودٍ في الكون عملوا بإذن الله من أجل لقمةٍ قد يأكلها الإنسان غافلاً!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾. السفينة من صنع الإنسان، لكن إمكان جريانها من خلق الله. هو الذي خلق الماء بخصائصه، والعقل بقدرته على الاكتشاف، والخشب والحديد، والرياح والقوانين التي تسمح للفلك أن تحمل الأثقال فوق البحر.

وهنا يصحح القرآن غرور التقنية: فالإنسان يركب الأسباب، لكنه لا يخلق قوانينها من العدم. كل اختراع بشري قراءةٌ لصفحة سبق أن كتبها الله في الكون، وكل قدرة على التسخير فرعٌ من تسخير الله. ولهذا قال: ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ لتظل السفينة، مهما بلغت دقتها، معلقةً بإذن رب البحر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾. تجري المياه في الأرض كالشرابين في الجسد، تحمل الحياة إلى المدن والحقول، ويرتبط بها استقرار البشر وحضاراتهم. النهر لا يسأل العطشى عن أسمائهم، ولا يمنع ماءه عن نبتة صغيرة؛ إنه نعمة عامة تفيض بأمر الله.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾؛ مستمرين في الحركة والنفع، لا يفتران عن أداء ما سخرهما الله له. منذ آلاف السنين والشمس لا

تتعبد من الشروق، والقمر لا يملُّ من منازلِه، ولا يطالبان الإنسان بثمرِ الضوء والتوقيت والدفع.

إن كلمة ﴿ذَائِبِينَ﴾ توقظ القلب على نعمة الاستمرار. فنحن نلتفت إلى النعمة حين تأتي بعد انقطاع، لكن النعم التي لم تنقطع تصير عندنا عادية. لا نشكر القلب على نبضه إلا إذا اضطرب، ولا ندرك نعمة التنفس إلا إذا ضاق، ولا ننتبه إلى الشمس إلا حين يحجبها السحاب. كأن دوام النعمة يمحوها من الوعي، مع أن الدوام ينبغي أن يضاعف الحمد.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾. الليل سترٌ وسكون، والنهار حركةٌ ومعايش. ولو كان الزمن نهارًا دائمًا لاحتترقت الأعصاب من الضوء والعمل، ولو كان ليلاً دائمًا لتعطلت وجوه كثيرة من الحياة. لكن الله يقلبهما في إيقاعٍ يعيد للإنسان توازنه: هذا يطويه إلى الداخل ليستريح، وذاك يفتحه على العالم ليسعى.

فالليل ليس فراغًا بين يومين، بل نعمة لها وظيفة، والنهار ليس مجرد مساحة للركض، بل أمانة للعمل. ومن اختلَّت علاقته بهما اختل شيءٌ من علاقته بنفسه: قد يحول الليل إلى ساحة غفلة، والنهار إلى مطاردة لا تنتهي، ثم يشكو أن روحه لا تعرف السكينة.

﴿وَأَنَّا نَلْقَاهُ مِن كُلِّ مَأْسَلَةٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾. أعطاكم من أجناس ما سألتكم، وأعطاكم كذلك أشياء لم تعرفوا كيف تسألون عنها. فكم من نعمة سبقت وعيك: خلقت لك رئتَانِ قبل أن تعرف حاجتك إلى الهواء، وقلبٌ قبل أن تفهم معنى الدم، وأمٌّ حملتك قبل أن تتنطق باسمها، وأرضٌ مهيأة قبل أن تضع قدمك عليها.

إن دعاء الإنسان أضيّق من عطاء الله. نحن نسأل بحسب ما نعرف، والله يعطينا بحسب علمه بما نحتاج. ولو اقتصر عطاؤه على ألفاظ طلبنا لهلكنا من حاجاتٍ لم تخطر ببالنا. إننا نعيش في الإجابة قبل أن نتعلم السؤال.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾. قال: ﴿نِعْمَتٌ﴾ بالإفراد الدال على الجنس؛ فكأن النعمة الواحدة، إذا شرعت في تفصيل عناصرها وآثارها، أعجزتك عن الإحصاء. نعمة البصر وحدها كم يدخل فيها؟ عينٌ وخلايا وأعصاب وضوء وألوان وقدرة على التمييز، ثم مشاهد الحب والجمال والقراءة والاهتداء بالطريق. أين تنتهي حدود النعمة الواحدة؟

نستطيع أن نعدَّ بعض النعم، لكننا لا نحيط بها علمًا ولا نبلغ شكرها. فكلما شكرنا نعمةً كان توفيقنا للشكر نعمةً جديدةً تحتاج إلى شكر. وهكذا يبقى العبد بين عطاء يتدفق، وعجز جميل يعترف فيه أنه لا يثني على الله كما أثنى الله على نفسه.

ثم تأتي المفاجأة المؤلمة بعد عرض هذا الكون المسخر: **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾**.

وسط السماوات والأرض والماء والثمر والسفن والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، يقف الإنسان ظلومًا كثير الكفران. يظلم نفسه حين يقطعها عن مصدر النعمة، ويجحد فضل ربه مع أن آثار الفضل تحاصره من كل جانب.

و«كفَّار» صيغة مبالغة تشير إلى شدة الكفران وتكرره؛ فما أسرع أن ينسى الإنسان! قد يظل سنوات في عافية، فإذا مرض يومًا سأل متضرعًا: لماذا أنا؟ وقد تُفتح له أبواب كثيرة، فإذا أُغلق بابٌ واحد رأى الحياة كلها سجنًا. إنه يختصر سجل العطاء الطويل في صفحة الألم الحاضرة.

ولا تدم الآية طبيعة الإنسان لتغلق أمامه باب الارتقاء، بل تكشف مرضه حتى يعالجه بالشكر. ففي داخله قابليةٌ للجحود، لكنه

يستطيع بنور الوحي أن يربي ذاكرته، وأن يتعلم رؤية النعمة قبل فقدها، وأن يحمد الله في الرخاء فلا يكون الألم وحده هو الذي يوقظه.

وإذا تأمل الإنسان هذا التسخير كله، خجل من معصيته. كيف يستعمل ضوء الشمس في طريق يغضب خالقها؟ وكيف يأكل من ثمر أخرجته الله ثم يقوى به على مخالفته؟ وكيف يتنفس هواءً لم يصنع منه ذرة، ثم يمتلئ كبراً كأنه مستغن عن ربه؟

إن الكون كله يعمل من أجلك بأمر الله، لكن السؤال الذي تنتظره السورة هو: ولمن تعمل أنت؟ الشمس والقمر دائبين في الوظيفة التي خلقهما الله لها، والنهر يجري، والسفينة تمضي، والبذرة تنشق؛ فهل يكون الإنسان، الذي مُنح العقل والإرادة، هو الكائن الوحيد الذي يضيع عن غاية وجوده؟

ليس الشكر أن تردد الحمد عند اكتمال رغبتك فقط، بل أن تعيش مستشعراً أنك محمولٌ داخل عناية لا تستطيع إحصاءها. وأن تعرف، حين يتأخر عنك شيء، أن الذي منع واحداً هو نفسه الذي أعطى ما لا عدد له؛ وأن يد العطاء لم تتحول فجأة إلى يد حرمان، وإنما تدبرك بحكمة قد لا تراها.

فإذا أظلمت في وجهك نافذة، فلا تقل: انطفأ الكون. ارفع بصرك قليلاً: ما زالت السماوات قائمة، والأرض تحملك، والشمس والقمر دائبين، والليل والنهار يتعاقبان، وفي صدرك قلب ينبض بإذن الله. وما دام المنعم هو الله، فإن أبواب الرجاء أكثر من أن تُحصى، كما أن نعمه أكثر من أن تُعد.

الفصل الخامس عشر

دعاء يبني مدينة... إبراهيم في الوادي الذي لم يكن فيه شيء

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيٍّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيٍّ رَبَّنَا وَقَبَلْ دُعَاءِ ۝ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

هنا تبلغ السورة مشهدها الذي حملت اسمه. إبراهيم عليه السلام يقف في قلب الصحراء، لا بوصفه رجلاً يملك مشروعاً مكتمل الأسباب، بل عبداً يحمل يقيناً أوسع من المشهد. وادٍ لا زرع فيه، وبيتٌ محرم، وأسرة صغيرة تُترك في وحشة المكان؛ لكن قلب الخليل يرى فوق قسوة الجغرافيا رحمة الله، ويرى وراء الصمت مستقبلاً ستضج فيه الأرض بالتلبية.

إنها لحظة تكشف أن أعظم ما يُبنى في التاريخ قد يبدأ بدعاء. قبل أن تظهر المدينة، ويفد الناس، وتجري الأرزاق، كان هناك قلبٌ موقن ویدان مرفوعتان. فالحضارات لا تقوم بالحجارة وحدها؛ بل تحتاج قبل الحجر إلى معنى، وقبل السوق إلى قبلة، وقبل كثرة السكان إلى إنسان يعرف لماذا يسكن الأرض.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾.

يبدأ إبراهيم عليه السلام بالأمن؛ لأن الحياة لا تزدهر في أرضٍ يأكلها الخوف. فالخائف لا يستطيع أن يتفرغ للعبادة والعمران وطلب الرزق، إذ يستهلكه ترقب الخطر. والأمن نعمة صامتة لا يشعر بقيمتها إلا من فقدوها: أن ينام المرء ولا ينتظر باباً يُكسر، وأن يخرج ولا يخشى ألا يعود، وأن يحمل الطفل أحلامه بدل أن يحمل خوف الكبار.

لكن الأمن الذي يطلبه إبراهيم ليس منفصلاً عن التوحيد؛ ففي الدعاء نفسه يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامًا﴾.

إنه خليل الرحمن، ومحطّم الأصنام، والذي أُلقي في النار بسبب توحيده، ومع ذلك يسأل الله أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام. لم يقل: لقد بلغت من اليقين مقامًا لا أخاف بعده على نفسي. بل بقي مفتقرًا إلى تثبيت الله حتى آخر الطريق.

وهذا هو الفرق بين يقين العارف وغرور الغافل: كلما عرف المؤمن عظمة الفتنة ازداد استعانةً بالله، وكلما رأى الجاهل ضعفه قليلًا ظن أنه قد أمِن. إبراهيم لا يخاف الأصنام لأنها حجارة قوية، بل يخاف ضعف القلب البشري إذا تُرك إلى نفسه، ويعلم أن الثبات ليس ملكًا مكتسبًا، بل عطاءٌ يُستجلب بالدعاء والطاعة.

﴿وَأَجْنُبْنِي﴾ أبلغ من أن يقول: أبعد الأصنام عني؛ فهو يسأل أن يكون هو في جانب، وعبادتها في جانب آخر، وألا تقترب روحه من مداخلها. فالفتنة لا تُقاوم دائمًا بالوقوف على حافتها والثقة بالنفس؛ بل قد تكون النجاة في صناعة المسافة، وإغلاق الباب قبل أن يدخل منه الهواء المسموم.

وللأصنام صورٌ تتبدل، وإن بقي أصلها واحدًا. الصنم كل ما صُرف له شيء من العبادة التي لا تكون إلا لله. وقد تتخذ القلوب من المال أو المنصب أو الهوى أو البشر أندادًا حين تمنحهم طاعةً

مطلقة، أو محبة عبادة، أو خوفاً لا يليق إلا بالله. ليست العبرة بأن يتغير شكل الحجر، بل بأن يبقى القلب خالصاً لربه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾. نُسب الإضلال إلى الأصنام لأنها كانت سبباً له، وإلا فهي أحجار لا تملك إرادة ولا سلطاناً. الذي صنعها بيده عاد فوهبها حقاً على قلبه، والذي نحتها جعلها أعلى منه. وهكذا يفعل الباطل: يبدأ صناعةً بشرية، ثم يتحول مع الزمن إلى سلطانٍ يخضع له صانعوه.

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾. ليست القرابة الحقيقية عند إبراهيم قرابة الدم وحده، بل قرابة الطريق. فمن اتبعه في التوحيد فهو منه، ولو باعدت بينهما الأنساب والأمكنة والأزمنة. إن الرابطة الإيمانية تعبر القرون: مؤمنٌ يعيش بعد إبراهيم بآلاف السنين، لكنه من ملته لأنه حمل الكلمة التي حملها.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. لم يقل: فإنك شديد العقاب، مع أن هذا حق، بل ذكر المغفرة والرحمة؛ شفقةً على العصاة، وتفويضاً لأمرهم إلى الله، وفتحاً لباب الرجوع. وليست الآية حكماً بمغفرة الشرك لمن مات عليه؛ فالقرآن محكمٌ في أن الله لا يغفر أن يُشرك به لمن لقيه بذلك، لكنها تعبير عن رحمة النبي بقومه، ورجائه أن يتوب العاصي فيدركه الغفران.

لا يحمل إبراهيم قلب داعية متشفٍ ينتظر هلاك المخالف، بل قلباً يرجو له باب الرحمة. يؤلمه العصيان، لكنه لا يستأذ بمصير العاصي. يعرف أن وظيفته الدعوة والبلاغ، وأن الحكم لله، وأن التوبة تستطيع أن تصنع من البعيد قريباً.

ثم يصف موقع الأسرة الصغيرة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي
بُؤَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾.

لم يقل: قليل الزرع، بل ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾؛ وادٍ لا يحمل في ظاهره مقومات الإقامة. لا بستان ينتظرهم، ولا نهر يجري بقربهم، ولا سوق ولا جيران. الأسباب تكاد تقول كلها: لا حياة هنا. لكن إبراهيم لم ينظر إلى المكان منفصلاً عن رب المكان.

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. هنا يتغير معنى الصحراء. قد يكون الوادي غير ذي زرع، لكنه عند بيت الله. وما قرب من الله لا يُقاس بفقر ظاهره، وما ابتعد عنه لا تغني عنه خصوبة الأرض. قيمة المكان ليست بما يخرج ترابه وحده، بل بما يوقظه في الروح.

وفي قوله: ﴿بَيْتِكَ﴾ تشريفٌ للبيت الحرام، فالله غني عن البيوت والأمكنة، وإنما أضافه إليه إضافة تشريف وتعظيم. وهذا البيت سيصبح قبلةً للعالمين، مع أن المشهد الآن لا يكشف إلا صحراء

وأسرة ودعاء. كثيرٌ من وعود الله تبدأ صغيرةً في عين الحس، عظيمةً في عين اليقين.

ثم يذكر إبراهيم الغاية من الإسكان: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

لم يقل: ليبنوا دولة، أو يجمعوا مالاً، أو يصنعوا مجداً قُبَلِيًّا؛ وإن كانت وجوه العمران تأتي تبعاً، وإنما قال: ليقموا الصلاة. فالغاية الأولى من المدينة أن تكون موضع عبادة، ومن الأمن أن يحمي الصلاة، ومن الرزق أن يعين عليها، ومن الاجتماع أن ينتظم حول التوحيد.

الصلاة هنا ليست تفصيلاً في مشروع العمران؛ إنها مركزه. وإذا ضاعت الغاية، تحولت المدينة مهما اتسعت إلى تيهٍ مزدحم، وصارت الأسواق التي كان يفترض أن تخدم الإنسان أرباباً تستعبده. لا قيمة لعمرانٍ يرتفع فيه البناء وينهار فيه القلب.

وبعد أن حدّد غاية الإقامة، سأل أسباب الحياة: ﴿فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

لم يقل: أجسادًا تأتي، بل ﴿أَفْدَةً﴾؛ فالرحلة إلى البيت الحرام رحلة قلوب قبل أن تكون رحلة أقدام. و«تهوي» تحمل معنى الميل والمحبة والإسراع من علو؛ كأن القلوب تُجذب إلى هذا الوادي بقوة لا تراها العيون.

لقد استجاب الله الدعاء، فصار الناس يأتون من أقاصي الأرض، يقطعون البحار والبلاد، وتسبق أشواقهم أجسادهم. كم من إنسان لم ير مكة قط، لكنه يبكي إذا ذكرت! وكم من حاج يغادرها، ويبقى قلبه معلقًا بها، كأن جسده عاد وبقي فؤاده يطوف!

وقوله: ﴿أَفْدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾، أي قلوبًا من الناس، لا جميع الناس؛ فجاء الدعاء منضبطًا بما شاء الله، واستجاب الله له من عباده من كتب لهم الإيمان والحج والعمرة والشوق إلى بيته.

﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾. الوادي لا يزرع، لكن الثمر سيأتيه من كل مكان. إن إبراهيم لا يسأل الله أن يغير حقيقة الوادي بالضرورة، بل أن يرزق أهله مع غياب السبب المحلي. وهنا يظهر الفرق بين خالق الرزق وأسباب الرزق: فقد يخرج الله الثمر من الأرض، وقد يسوقه من أطراف البلاد إلى وادٍ لا ينبت فيه.

فلا ينبغي للإنسان أن يحصر عطاء الله في الطريق الذي يعرفه. قد تنعدم الأسباب أمامك، لكن خزائن الله لا تنعدم؛ وقد يكون مكانك غير ذي زرع، إلا أن الله يرسل إليك ثمراتٍ نبتت في أرض لم ترها، وحملتها أيدٍ لم تعرفها، وساقها تديبٌ لم يخطر لك على بال.

لكن الرزق ليس غايةً مستقلة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

سأل لهم الأفئدة لتؤنسهم، والثمرات لتقيم أبدانهم، والصلاة لتقيم أرواحهم، ثم جمع ذلك كله في غاية الشكر. فالمجتمع الإبراهيمي ليس مجتمعاً يستهلك النعمة وينسى المنعم، بل يرى في كل ثمرة وصلت إلى الوادي رسالةً من الله تستدعي الحمد والطاعة.

ثم ينتقل الدعاء من حاجات المكان والذرية إلى علم الله المحيط:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾.

كان إبراهيم يودع بين يدي الله ما لا تستطيع العبارة حمله: خوف الأب الذي يترك زوجته وطفله في الوادي، والرجاء الذي يملأ قلبه، والألم الذي لم يشأ أن يعترض به على الأمر. إنك تعلم ما نخفي؛ تعلم ارتجاف القلب وإن ثبتت الخطوة، وتعلم الدموع التي لم تنزل، وتعلم الكلمات التي توقفت في الحلق.

في الدعاء لحظات يعجز فيها اللسان، لكن عجزه لا يمنع وصول المعنى. الله لا يحتاج إلى فصاحتك ليعرف حاجتك، ولا إلى ترتيبك للكلمات ليطلع على اضطرابك. قد تجلس بين يديه ولا تقول إلا: يا رب؛ ثم يكون في هذه الكلمة من المعاني ما لا تتسع له المجلدات.

﴿وَمَا يَحْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾. لا تضيع في علمه أسرة صغيرة في وادٍ بعيد، ولا دعوة خافتة في ليل الصحراء، ولا خوف مستور في صدر نبي. الذي يعلم ما في السماوات يعلم رجفة القلب، والذي يدبر الأفلاك لا تشغله عظمتها عن حاجات طفل بجوار بيته.

الفصل السادس عشر

حين يجيء العطاء بعد الكبر... لا يشيخ الرجاء في باب الله

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

كان يمكن لإبراهيم أن ينظر إلى امتداد العمر، فيرى فيه إغلاقاً لباب الولد. فالأسباب البشرية لها مواسم، والجسد تضعف قواه، والعادة تقول إن الفرصة قد مضت. لكن الله وهبه إسماعيل وإسحاق على الكبر؛ ليبقى في قصة الخليل شاهداً على أن قدرة الله لا تشيخ حين تشيخ الأسباب.

قال: ﴿وَهَبْ لِي﴾؛ لأن الولد هبة، لا استحقاقاً محضاً ولا ثمرة قدرة الإنسان وحدها. قد تنتهي الأسباب ولا يأتي الولد، وقد تتأخر الأسباب ثم يأتي بأمر الله. وكل هبة تحمل معها أمانة؛ فالذرية لا تُعطى ليكتمل بها المظهر الاجتماعي، بل لثربى على معرفة واهبها.

﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾؛ جاءت الهبة بعد طول انتظار، وكأنها تقول لكل قلب طال رجاؤه: تأخر العطاء لا يعني ضياع الدعاء. قد يدخره الله إلى وقت يصبح مجيئه فيه أبلغ في الدلالة، وأعمق في الشكر، وأقطع لتعلق القلب بالأسباب.

فالإنسان يريد العطاء في اللحظة التي يختارها، لكن الله يختار له لحظةً تتربى فيها روحه. وقد يكون التأخير جزءًا من الهبة؛ إذ يطهر الرغبة من العجلة، ويعلم القلب الإلحاح، ويجعله حين يأخذ يعرف قيمة ما أُعطي.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. يسمع الدعاء الخافت، والدعاء الذي تكرر سنوات، والدعاء الذي لم يعد صاحبه قادرًا إلا على إمراره في قلبه. وسماع الله ليس مجرد إدراك للصوت، بل سماع علم وإجابة بما تقتضيه حكمته؛ فقد يعطي عين المطلوب، أو يدفع به شرًا، أو يدخر لصاحبه خيرًا أعظم.

وإبراهيم يقولها بعد أن رأى أثر الإجابة: إسماعيل وإسحاق يقفان في حياته شاهدين على أن الدعاء لا يضيع. لكن لسان الحمد لا يتوقف عند النعمة، بل ينتقل منها إلى طلب صلاحها: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

لم يطلب أن يكون ممن يصلون فحسب، بل ﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾؛ ثابتاً عليها، قائماً بحقوقها، جاعلاً لها موضعها من حياته. فالعبادة لا تُضمن بتاريخ الصلاح، ولا يستغني العبد عن الدعاء لها مهما بلغ مقامه. وهذا إبراهيم عليه السلام، إمام الحنفاء، يسأل الله أن يجعله مقيم الصلاة.

ما أحوج الإنسان إلى أن يخاف على عبادته أكثر مما يخاف على دنياه! نحن نكثر الدعاء بحفظ المال والصحة والأهل، ونقل أحياناً من الدعاء بحفظ الصلاة والإيمان. مع أن المصيبة الحقيقية ليست أن يفقد الإنسان شيئاً من دنياه، بل أن يبقى كل شيء في يده ويفقد الطريق إلى ربه.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. لا يحمل المؤمن همَّ صلاح نفسه وحدها؛ فالإيمان الصادق يريد أن يمتد نوراً في الأبناء والأحفاد. إنه لا يسأل لهم مكانة دنيوية مجردة، بل يسأل لهم قبل ذلك أن يقيموا الصلاة. فما قيمة مستقبلٍ واسع إذا كان بعيداً عن الله؟ وما نفع مالٍ يحوط الابن إذا كان قلبه خراباً؟

لكن إبراهيم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فلم يعمهم جميعاً؛ موافقةً لعلم الله وحكمته، وبعد أن علم أن عهد الله لا ينال الظالمين. فالهداية ليست ميراثاً ينتقل بالدم وحده، والانتساب إلى الصالحين لا يعفي من

العمل. قد يخرج من بيت النبوة من يختار غير سبيلها، ويبقى كل إنسان مسؤولاً عن موقفه.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾. دعا، ثم سأل قبول الدعاء؛ لأن العارف لا يعجب حتى بعبادته. يعرف أن توفيقه للدعاء فضل، وأن قبوله فضل آخر، وأن حاجته إلى الله لا تنتهي عند رفع اليدين.

كم من إنسان يظن أن مجرد صدور العمل منه يكفي، لكن إبراهيم يعلمنا أن الهم ليس أن تعمل فقط، بل أن يتقبل الله منك. القبول هو الروح التي تجعل العمل باقياً عنده؛ ولهذا كان الصالحون يعملون ثم يخافون الرد، ويرجون الرحمة، ولا يمتنون بطاعاتهم على ربهم.

ثم يختم الدعاء بطلب المغفرة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

دائرة الدعاء تتسع: تبدأ بالنفس، ثم الوالدين، ثم المؤمنين جميعاً. القلب المتصل بالله لا يضيق بالخير، ولا يريد النجاة لنفسه وحدها. يحمل أمة الإيمان في دعائه، من عرف منهم ومن لم يعرف، ومن سبقه ومن سيأتي بعده.

ودعاؤه لوالديه كان قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، فلما تبين له ذلك تبرأ منه كما بين القرآن في موضع آخر. وفي هذا حفظٌ للمعنى الشرعي: فالقربة لا تبيح الاستغفار لمن مات على الشرك بعد قيام البيان في شأنه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. اختار إبراهيم أخطر يوم لطلب المغفرة؛ اليوم الذي تقوم فيه الموازين، وتفتح الكتب، ويقف كل إنسان أمام ما قدم. إن المغفرة هي الحاجة العظمى هناك؛ فقد يدخل العبد الدنيا بأمان ورزق وذرية، لكنه إن جاء يوم الحساب مثقلًا بذنبه فقد خسر الغاية.

ما أبدع ترتيب دعاء الخليل! طلب أمن البلد، ثم أمن العقيدة، ثم إقامة الصلاة، ثم محبة القلوب، ثم الرزق والثمرات، ثم الشكر، ثم صلاح الذرية، ثم القبول والمغفرة. لم يهمل الدنيا، لكنه وضعها في موضعها: خادمة للدين، لا منافسةً له.

هذا هو الوعي الإبراهيمي: وطنٌ آمن لتعبد فيه الله، ورزقٌ واسع ليُشكر الله، وذريةٌ باقية لتقيم الصلاة، وقلبٌ لا يغتر بشيء من ذلك عن حاجته إلى المغفرة.

لقد أراد إبراهيم من الوادي أن يكون محراباً قبل أن يصير مدينة. ولذلك لما صحَّ الأصل جاءت الفروع: ماء زمزم، وأفئدة تهوي، وثمرات تُجبي، وبيت يُحج، وأذان بالتوحيد لا يزال يتردد عبر القرون.

وقد يضع الله الإنسان في «وادي غير ذي زرع» من أودية الحياة: أسباب قليلة، ووحشة شديدة، ومستقبل لا تظهر ملامحه. عندئذ يعلمه إبراهيم ألا يحتقر الدعاء، وألا يقيس الغد بعقم اللحظة. فقد يكون الذي تراه فراغاً هو المساحة التي سيكتب الله فيها أثراً عظيماً.

ليس المطلوب أن تنكر قسوة الوادي؛ فقد وصفه إبراهيم كما هو: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾. لكن الإيمان أن تصف الواقع بدقة، ثم لا تمنحه السيادة على رجائك. تقول: الوادي قاحل، لكن ربي سميع الدعاء. الأسباب بعيدة، لكن خزائنه قريبة. لا أرى الثمر الآن، لكنني أعرف من يستطيع أن يحمل إليه الثمرات.

وهكذا لا يكون اليقين تجاهلاً للواقع، بل رؤيةً لرب الواقع.

الفصل السابع عشر

لا تحسبن الإمهال غفلة... عينُ الله لا تنام عن الظالمين

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

بعد دعاء إبراهيم بالمغفرة يوم يقوم الحساب، تنتقل السورة إلى تصوير ذلك اليوم، وتبدأ بخطاب يداوي جرحاً قديماً في قلب كل مظلوم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

قد يبدو الظالم في الدنيا مطمئناً، يمد يده إلى الحقوق فلا تُرد، ويؤدي الأبرياء ثم يعود إلى بيته آمناً، ويزين جرائمه بالكلمات، وتصفق له جماعة تخشى سلطانه أو تنتفع به. تمر الأيام ولا تنزل عليه العقوبة التي يتوقعها المظلوم، فيتسلل إلى القلب سؤال موجه: أين العدل؟

فتأتي الآية لا لتجيب العقل وحده، بل لتضمّد الروح: لا تحسبن الله غافلاً. لم يفته مشهد، ولم تسقط من علمه دمعة، ولم تختلط عليه

الأسماء، ولم يخدعه البيان الملقق الذي خدع الناس. إنه يعلم الفعل، والنية التي وراءه، والألم الذي خلفه، والحق الذي ضاع بسببه.

الغفلة نقصٌ يستحيل على الله؛ فعلمه محيط، لا يعزب عنه مثقال ذرة. وتأخر العقوبة ليس نسيانًا، كما أن سرعة العقوبة ليست شرطًا للعدل. نحن أبناء اللحظة، نريد الحساب عقب الجريمة مباشرة؛ لكن الله يحكم بعلمٍ يحيط بالبداية والنهاية، ويؤخر لحكمة، ولا يضيع حقًا.

وقد يكون الإمهال استدراجًا للظالم، أو فتحًا لباب توبته، أو زيادةً في إقامة الحجة عليه، أو ابتلاءً يكشف مواقف الناس من ظلمه. لكن أيًا تكن الحكمة، فليست غفلةً أبدًا.

وفي الآية طمأنينة للمظلوم وتحذير له كذلك: لا يدفعنك تأخر العدل إلى أن تصبح ظالمًا. لا تقل: ما دام الظالم قد نجا فسأنجو مثله؛ فإنك لم ترَ نهاية الطريق بعد. ولا تجعل شدة ألمك مبررًا لتجاوز حدود الله؛ فالذي يحفظ حقك يرى أيضًا ما يصدر منك.

ثم تكشف السورة موعد التأخير: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

تشخص الأبصار: تظل مفتوحة مرتفعة من شدة الهول، لا تطرف ولا تستقر. العيون التي كانت تنظر إلى الضعفاء من علٍ أصبحت معلقة بالخوف. والتي لم تهتز لدموع المظلومين تجمدت الآن أمام ما ترى.

كان الظالم يملك في الدنيا رفاهية ألا ينظر إلى ضحيته؛ يأمر من بعيد، أو يشيح بوجهه عن آثار فعله، أو يختبئ خلف التقارير والأعدار. أما هناك فلا يستطيع أن يصرف بصره عن الحقيقة.

﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ مسرعين مقبلين إلى الداعي في ذل وخضوع، لا يملكون التأخر. كم أمروا الناس في الدنيا أن يأتوا إليهم، وكم انتظر الضعفاء على أبوابهم! أما الآن فهم الذين يسرعون إلى النداء، لا اختياراً بل عجزاً عن المخالفة.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾؛ رافعي رؤوسهم، وقد ثبتت أعناقهم من هول المشهد، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة. ليست رفعة الكبر القديمة، بل رفعة الذهول والرعب. الشكل قد يتشابه، لكن المعنى انقلب: رأس كان يرتفع استعلاءً، ثم ارتفع لأنه لا يملك أن يخفضه.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة التحديق، ولا تطرف عيونهم. إن الخوف حين يبلغ مداه يسلب الجسد عاداته البسيطة؛ فتظل العين مفتوحة، كأن ما تراه أمسك بها فلم يعد لها سلطان على نفسها.

﴿وَأَقْدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾؛ قلوبهم فارغة من كل ثبات وخير، قد ارتفعت من شدة الفزع، لا تعقل شيئاً لهول ما حل بها. القلب الذي كان ممتلئاً بالغرور والخطط والشهوات صار فراغاً؛ كأن كل ما ملأه في الدنيا خرج منه دفعةً واحدة، ولم يبق إلا الرعب.

ما أشد المقابلة بين أفئدة المؤمنين التي تهوي شوقاً إلى البيت الحرام، وأفئدة الظالمين التي صارت هواءً من الفزع! هناك قلبٌ جذبته الحب إلى الله، وهنا قلبٌ أفرغه الخوف حين جاء إلى الله بغير زاد.

هذه الآيات لا تريد من المظلوم أن يعيش أسيراً لمشهد الانتقام، بل أن يسلم قضيته إلى العدل الذي لا يغفل. إن الاشتغال الدائم بمراقبة الظالم قد يمنحه مساحةً أخرى في روحك بعد أن أخذ منك شيئاً من دنياك. فضع حقك عند الله، وخذ من الآية سكينتك، ثم امض في إصلاح ما تستطيع.

ليس معنى ذلك ترك دفع الظلم بالوسائل المشروعة، فالعدل واجب، ونصرة المظلوم من الدين؛ وإنما معناه ألا يفسد قلبك حين تتأخر النتيجة، وألا تظن أن الحقيقة مأتت لأن الحكم الأرضي لم ينصفها.

قد يموت الظالم على فراشه، وتقام له المراسم، وتكتب عنه الكلمات المنمقة، فيظن من لا يؤمن بالآخرة أن الملف قد أُغلق. لكن في ميزان القرآن لم يبدأ الفصل الحاسم بعد. الموت لا يغلق ملف الظلم، بل ينقل صاحبه إلى المحكمة التي لا تُشترى فيها الشهادات، ولا تضيع فيها الوثائق، ولا ينجو فيها أحد بالاسم والنفوذ.

وهذا هو اليقين الذي يحفظ العالم من العبث: أن وراء أحكام البشر حكمًا لا يُنقض، ووراء ذاكرة الناس علمًا لا ينسى، ووراء ما نراه يومًا تشخص فيه الأبصار.

فلا يغتر الظالم بصمته تعالى عن التعجيل؛ فصمت الإمهال ليس علامة الرضا. ولا ييأس المظلوم من تأخر الجواب؛ فالحق محفوظ عند من لا تأخذه سنة ولا نوم. وبين الإمهال والحساب مساحة قصيرة اسمها العمر، مهما طالت في وهم الإنسان.

الفصل الثامن عشر

رَبَّنَا أَخْرِنا... الصرخة التي تصل بعد انقضاء زمن الإجابة

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعَوْتِكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۚ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَكُمْ كَيْفَ فعلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۚ وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾؛ لم يقل: أُنذر الظالمين وحدهم، لأن مشهد الآخرة يحتاج أن يبقى حاضراً أمام الناس جميعاً. كل نفس تحمل قابلية الانحراف، وكل قلب يحتاج إلى جرس يوقظه قبل أن يطول نومه.

والإنذار ليس تخويفاً فارغاً، بل رحمة تستبِقُ الكارثة. إن من يرى ناراً في آخر الطريق ثم يسكت عن السائرين ليس رحيماً بهم. والقرآن حين يصور العذاب لا يريد أن يدفع الإنسان إلى اليأس، بل يريد أن ينتزعه من الغفلة ما دام باب التغيير مفتوحاً.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾. كانوا في الدنيا هم الذين يأتون المعصية مختارين، فإذا بالعذاب هو الذي يأتِيهم، لا يستطيعون صرفه ولا تغيير مواعده. طالما هربوا من سماع الخبر، لكن الخبر أصبح واقعًا يحيط بهم.

عندئذ ينطق الذين ظلموا بالدعاء الذي كان يمكن أن ينجيهم لو قالوه بصدق في الدنيا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

الذين عاشوا أعمارًا ربما امتدت عشرات السنين، يطلبون الآن أجلاً قريباً؛ لحظات قليلة يعودون فيها إلى الأرض. لقد صار القليل الذي أضاعوه أغلى من الدنيا كلها. يوم واحد من التكليف أثمن عندهم الآن من سنوات المتاع التي استهلكوها في الغفلة.

كم كان الأجل قريباً منهم في الدنيا، لكنهم كانوا يؤجلون! تأتِيهم الموعظة فيقولون: لاحقاً. تمر بهم جنازة فيقولون: ما زلنا أحياء. يطرقهم الشيب فيصبغون علامته ولا يقرؤون رسالته. حتى إذا انتهى الزمن طلبوا قطعة صغيرة منه، فلم يجدوها.

﴿تُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾. يعدون بالطاعة بعد أن صار الغيب شهادة، والامتحان نتيجةً، والإنذار عياناً. لكن الإيمان الذي يُطلب هو إيمان الاختيار قبل رفع الحجاب، لا اعتراف الاضطرار بعد مشاهدة العذاب.

لقد كانت دعوة الله تصل إليهم في الدنيا هادئةً على لسان الرسل، وكانوا يملكون قبولها ورفضها. أما الآن فهم الذين يدعون الله أن يعيدهم، لكن زمن الإجابة العملية انتهى. ما أقسى أن يتبادل النداءان موقعيهما: دعاهم الله إلى النجاة فلم يجيبوا، ثم دعوه إلى التأخير فلم يُجابوا.

فيأتيهم الرد: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾.

كنتم تظنون أن دنياكم لا تزول، أو تنكرون البعث والانتقال إلى دار الجزاء. لم يكن هذا الاعتقاد دائماً جملةً منطوقة، بل كان سلوكاً يومياً. فمن يعيش للمال كأنه لن يتركه، ويظلم كأنه لن يقف للحساب، ويبني دنياه بهدم آخرته—قد أقسم بلسان حاله أن لا زوال.

إن معرفة الإنسان النظرية بالموت قد تعجز عن الدخول إلى وجدانه. يقول: كل نفس ذائقة الموت، ثم يخطط ويخاصم ويجمع

كأن الاستثناء كُتب له وحده. يشيع الموتى إلى قبورهم، ويعود من المقبرة ليستأنف الغفلة نفسها؛ كأنه أوصلهم إلى محطة لا يمر بها.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. لم تكونوا أول ظالمين على الأرض، بل سكنتم فوق أطلال من سبقكم. مشيتم في مدنهم، ورأيتم آثار قوتهم، وربما استعملتم حجارة بيوتهم، ومع ذلك لم تسألوا: أين أصحابها؟

المساكن أطول عمراً من ساكنيها، لكنها لا تمنحهم الخلود. يخرج الإنسان من بيته الذي أنفق عمره في بنائه، ويبقى البيت لغيره؛ يغير القادمون أثاثه وألوانه، وقد لا يعرفون اسم من أسسه. ومع ذلك يتعامل الناس مع جدرانهم كأنها عقد أمانٍ ضد الزوال.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. لم تكن العبرة خفية؛ فقد جاءت الأخبار، وبقيت الآثار، وتكررت السنن. عرفوا أن الظلم كانت له عاقبة، وأن القوة لم تمنع أهلها من أمر الله. لكن المعرفة التي لا تتبعها يقظة قد تتحول إلى جزء من الغفلة؛ نعرف قصة السقوط ونكرر مقدماتها.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾. قَرَّبَ الله إليهم المعاني، ونوع لهم البيان، وعرض أمامهم مصائر السابقين في صور تهز القلب. لم يتركهم

أمام حقيقة مبهمة؛ بل خاطب عقولهم بالبرهان، وقلوبهم بالمثل، وذاكرتهم بالتاريخ. ومع ذلك أصرّوا، فاستحقوا أن تقوم عليهم الحجة.

ثم تنتقل الآيات إلى مكرهم: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

خططوا في الخفاء، ورتبوا الوسائل، وظنوا أن إحكام الخطة يحجبها عن الله. لكن مكرهم عنده: معلومٌ له، محيطٌ به، مكتوبٌ في حسابه، وهو قادر على إبطاله وردّه عليهم. ما يخفى في الغرف المغلقة لا يخفى على من يعلم ما تخفي الصدور.

قد ينجح المكر في مرحلته الأولى، فيظن أصحابه أن نجاحه دليل ذكائهم المطلق. لكنهم يرون خطوةً واحدة، والله يرى الطريق كله. وربما سمح لهم أن يمضوا حتى يستكمل المكر صورته، ثم أخذهم من حيث ظنوا أنهم أحكموا النجاة.

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. أي إن مكرهم، على عظمتها وشدتها، قد بلغ مبلغًا يكاد تزول منه الجبال؛ أو على القراءة والمعنى الآخر: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال الثابتة التي

أقامها الله، ومن أعظمها دينه وآياته. وفي كلا الاعتبارين يتبدى ضَعْف المكر البشري أمام تدبير الله، مهما بدا هائلاً.

الجبال في الحس رمز الثبات، والمكر يعمل في الخفاء ليقْتَلع ما يظنه الناس راسخاً. قد توظف قوى الباطل المال والإعلام والسلطة والخوف، حتى يشعر المؤمن أن الجبال نفسها تتحرك. لكن الآية تردُّ كل هذا إلى حجمه الحقيقي: المكر عند الله، لا خارج علمه ولا فوق قدرته.

وما دام المكر عند الله، فلماذا يستهلك المؤمن قلبه في الخوف منه؟ يأخذ بالأسباب، ويحذر ولا يغفل، لكنه لا يمنح الماكرين منزلةً في نفسه كأنهم يملكون مفاتيح القدر. إنهم يخططون داخل ملك الله، ويستعملون عقلاً خلقه الله، ويتحركون في زمنٍ حدده الله، ولا يستطيعون أن ينفذوا إلا ما أذن به كوناً لحكمة.

هذه الآيات تعلِّم الإنسان أن الخطر ليس في غياب العبر، بل في المرور بها دون اعتبار. السابقون رحلوا، ومساكنهم بقيت، والأمثال ضُربت، والمآلات بُيِّنت؛ فلا ينقصنا الدليل، وإنما تنقصنا أحياناً شجاعة تطبيقه على أنفسنا.

ننظر إلى طغاة الماضي ونقول: كيف لم يفهموا؟ ثم نمارس شيئاً من منطقهم في بيوتنا وأعمالنا. نتعجب من غرورهم، ثم نرفض كلمة الحق إذا جرحت صورتنا. نقرأ كيف زالت أمم، ثم نعيش كأن زوالنا بعيد.

ولهذا جاء الإنذار للناس جميعاً. فليس المقصود أن تقرأ الآية وأنت تبحث عن ظالمٍ آخر تطبقها عليه، بل أن تضعها أولاً أمام مواضع الظلم في نفسك: حق أخّرتَه، أو كلمة جارحة استصغرتها، أو ضعيف استعملت حاجته، أو حقيقة عرفتَها ثم دفنتها حمايةً لمصلحتك.

التوبة اليوم هي الاستجابة الممكنة لقولهم غداً: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا﴾. فمن أراد أجلاً قريباً فما هو الأجل بين يديه، وما دام يتنفس فقد أُعطي الفرصة التي سيطلبها أهل الندم ولا تُعطى لهم. ليست المشكلة أن الوقت قليل، بل أن الإنسان لا يشعر بقيمته إلا حين ينتهي.

فبادر قبل أن تتحول كلمة «سأفعل» إلى شاهد عليك، وقبل أن يصبح المستقبل الذي تؤجل إليه توبتك ماضياً لا تستطيع الرجوع إليه.

الفصل التاسع عشر

لا يُخلف الله رسله... حين تأتي الخاتمة من فوق كل مكر

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
 أَنْتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمُوتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ
 الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

بعد أن ذكرت السورة مكر الظالمين، وقد يبلغ في شدته مبلغاً
 عظيماً، جاء النهي عن الظن الذي قد يداهم القلب حين يرى الباطل
 يعمل، ولا يرى الوعد قد ظهر بعد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ
 رُسُلَهُ﴾.

إن وعد الله لا تهدده كثرة الخصوم، ولا يؤخر تحقيقه عجزاً في
 القدرة، ولا يطرأ على علم الله ما يجعله يغيره بسبب أمر لم يكن
 يعلمه. وعده صادرٌ عن علمٍ كامل، وقدرةٍ مطلقة، وحكمةٍ تضع
 كل شيء في وقته.

غير أن الإنسان يقرأ الوعد بعجلته، ويريد له صورةً وموعداً
 يختارهما بنفسه. فإذا لم تقع الأحداث على وفق تصوره ظن أن
 الوعد قد تأخر، وربما ظن أنه لم يتحقق. لكنه ينسى أن وعد الله

أوسع من فهمه، وأن الله لا يتبع توقعات البشر، وإنما تجري توقعاتهم داخل قضائه وحكمته.

قد يكون النصر حفظَ الفكرة حين يُقتل حاملها، وبقاء الكلمة حين يسكت صوت قائلها، وانكشاف الباطل بعد أن ظن أهله أنهم أحكموا تغطيته. وقد يكون نصرًا ظاهرًا في الأرض، وقد يُدّخر تمامه ليوم القيامة. المؤكد ليس الشكل الذي نتخيله، بل أن الله لا يخلف وعده رسله.

وما دام الوعد للرسَل، فإن أتباعهم ينالون منه بقدر صدق اتباعهم. أما من حمل أسماء الرسالات ثم خالف مناهجها، فلا يصح أن يطالب الله بوعده لم يحقق شرطه. إن النصر ليس امتيازًا للأسماء، بل ثمرة للإيمان والطاعة والصبر والأخذ بالأسباب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

هو عزيز لا يُغلب، ولا يمنعه شيء من إنفاذ وعده. وذو انتقام ممن أصر على الكفر والظلم بعد قيام الحجة. وانتقام الله عدلٌ كامل، منزلة عن نزوات الغضب البشري والتشفي؛ فهو سبحانه لا يظلم، وإنما يجازي المجرمين بما استحقوه.

إن البشر إذا انتقموا قد يجاوزون الحد؛ لأن الجرح يعميهم، ولأن علمهم ناقص، وقد يعاقبون بريئاً أو يضاعفون العقوبة فوق الجرم. أما الله فيعلم السر والعلن، والباعث والأثر، وحجم الجريمة، وما فيها من حقوق، فلا يختل ميزانه مثقال ذرة.

وفي وصفه بالعزة والانتقام طمأنينة للرسل والمؤمنين: لستم متروكين في ساحة يكتب الظالم فيها النتيجة، بل لكم ربٌّ عزيز، يرى ما يقع، ويمهل بحكمة، ثم يأخذ بعدل. وليس عليكم أن تتحولوا إلى آلهة عقاب، ولا أن يحمل الحقد قلوبكم؛ فإله كافٍ عباده، وحكمه أعدل من غضبهم.

ثم تحدد السورة الموعد الأكبر الذي لا يبقى بعده لباطل ستار: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمُوتُ﴾.

ليس يوم القيامة مجرد حدثٍ يقع على مسرح العالم الذي نعرفه؛ بل يتبدل المسرح نفسه. الأرض التي ألف الإنسان جبالها وبحارها وحدودها ومدنها تصير غير الأرض، وتتبدل السماوات. إن الأمر أكبر من انهيار حضارة أو زوال دولة؛ إنه انتهاء نظام العالم الذي سكنه الإنسان وابتلى فيه.

وقد أخبر القرآن والسنة بتغير أحوال الأرض والسموات يوم القيامة، أما حقيقة هذا التبدل وكيفيته التفصيلية فمما نؤمن به كما جاء، ولا نتكلف ما لم يأت به بيان. يكفينا أن ندرك أن الكون الذي ظنه الإنسان ثابتاً إلى الأبد سيطويه أمر الله، وأن الثابت الحق هو الله وحده.

الإنسان يتعلق بالأرض كأنها قراره الأخير. يرسم الحدود، ويتنازع الملك، ويظلم لأجل شبر، ويقطع رحمه لأجل بيت، ثم تأتي لحظة تُبدل فيها الأرض كلها. ما أغرب أن يخسر المرء آخرته من أجل شيء ستتغير صورته ويتركه حتماً!

وهذا لا يعني الزهد في إعمار الأرض أو صيانة الحقوق؛ فقد استخلفنا الله فيها وأمرنا بالعدل، وإنما يعني ألا يتحول المستخلف إلى متوهم للخلود. نعمر الأرض بأمانة من يعلم أنه سيغادرها، لا بجشع من يظن أنه مالكها الأبدي.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

يبرز الخلق جميعاً لله، لا يحجبهم بيت ولا حصن ولا قبر. ويُذكر هنا اسماء: ﴿الْوَحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ لأن ذلك اليوم هو يوم سقوط الأنداد

التي وزع الناس عليها خوفهم وطاعتهم. يظهر أن الملك كان للواحد دائمًا، وأن كل قوة ادعت الاستقلال قد خضعت للقاهر.

في الدنيا توهم الناس كثرة الأرباب: ربّ المال، وربّ السلطة، وربّ الشهوة، وربّ الجماعة، وربّ الصورة الاجتماعية. لكل واحد منها أوامر تُطاع، ورضا يُطلب، وغضب يُخشى. أما هناك فتسقط هذه الكثرة الزائفة، ويقف الجميع أمام الواحد.

هو ﴿الْوَحِيدُ﴾؛ فلا شريك له في الحكم والملك والجزاء. وهو ﴿الْقَهَّارُ﴾؛ خضع كل شيء لعظمته وسلطانه، فلا إرادة تخرج عن ملكه، ولا جبار يحتفظ بشيء من جبروته، ولا عنيد يستطيع أن يمضي في عناده.

والمؤمن يذوق معنى هذا اليوم في توحيده منذ الدنيا. من عرف الله الواحد لم يشتت قلبه بين المخلوقين، ومن عرفه القهار لم ير قوة أرضية خارج سلطانه. ولهذا يكون التوحيد استعدادًا نفسيًا وأخرويًا ليوم البروز؛ يعيش المؤمن اليوم بالحقيقة التي ستتكشف للخلق جميعًا غدًا.

لا يتعلق قلبه بوعد البشر أكثر من وعد الله، ولا يرتجف من مكرهم كأنه قدر مستقل، ولا يبيع الحق ليضمن حمايةً زائلة؛ لأنه يعرف أن الجميع سيفقدون مواقعهم، ويبرزون كما خلقوا أول مرة للواحد القهار.

الفصل العشرون

المجرمون في الأصفاد... حين تصبح السرائر لباساً ظاهراً

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

بعد تبدل الأرض والسموات وبروز الخلق للواحد القهار، تقترب الصورة من المجرمين: ﴿وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

مقرنين: قُرن بعضهم إلى بعض، أو قُرنَت أيديهم وأرجلهم في القيود، بحسب ما ذكره أهل التفسير؛ وكل المعاني ترسم مشهداً لفقدان الحرية التي أسيء استخدامها في الدنيا. كانت لهم إرادة يستطيعون بها أن يختاروا الطريق، فاتخذوا الحرية باباً للإجرام؛ فإذا هم اليوم في الأصفاد.

وقد كان المجرمون في الدنيا يقرنون الضعفاء في القيود، أو يقيدون حرياتهم بالخوف والحاجة، أو يحاصرونهم بقوانين الظلم. أما في الآخرة، فتظهر قيودٌ لا يستطيع نفوذ أن يكسرها، ولا رشوة أن تفتحها، ولا حارس أن يغفل عنها.

إن المعصية نفسها قيدٌ وإن بدت حرية. يظن صاحب الشهوة أنه حرٌّ حين يفعل ما يريد، لكنه قد يصبح عاجزاً عن ألا يفعل ما يريد؛ يأمره هواه فيطيعه، ويعرف الضرر فلا يستطيع التوقف. وذلك هو الاستعباد الخفي الذي ينتهي إلى الأصفاد الظاهرة.

أما طاعة الله، وإن جاءت في صورة أمرٍ ونهي، فهي تحريرٌ للإرادة من الطغيان الداخلي. الصائم يثبت أنه ليس عبداً لشهوته، والعفيف يثبت أن الرغبة لا تملكه، والصادق يثبت أن الخوف لا يشتري لسانه. من انضبط لله تحرر من كل ما سواه.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ﴾. السراويل هي القمص والثياب، والقطران مادة شديدة الاشتعال منتنة تؤلم الجلد وتسرع فيها النار. والثوب الذي ينبغي أن يكون سترًا وحمايةً صار أداة عذاب.

كم لبس المجرمون في الدنيا ثياباً أخفت حقائقهم! ثوب الوقار يخفي قلباً فاسداً، وثوب الإصلاح يغطي مشرعاً للفساد، وثوب التدين

يستر شهوة السلطة، وثوب الوطنية يخفي تجارةً بمصائر الأوطان. لكن يوم القيامة تُنزع الثياب المصنوعة من الكلمات، ويلبس الباطن صورةً تناسب حقيقته.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾. الوجه موضع الهوية والكرامة، وأظهر ما يستقبل به الإنسان الناس. كانوا يحمون وجوههم في الدنيا، ويحرصون على صورتهم، وربما ارتكبوا الجرائم كلها ليبقى الوجه محترمًا أمام الجمهور. أما هناك فتغشى وجوههم النار؛ لأن الصورة لم تعد قادرةً على حجب الحقيقة.

وليس وراء هذا المشهد ظلم أو انتقام بلا ميزان، بل تأتي العلة: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾؛ فلا أحد يضيع في زحام الخلق، ولا تُنسى نفسٌ لصغر شأنها في الدنيا. كل إنسان يحضر باسمه وعمله وقصته الكاملة. ويُجزى ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾؛ فلا يحمل بريء جرم مذنب، ولا يُزاد في السيئة فوق قدرها، ولا يضيع مثقال ذرة من خير.

إن التعبير بالكسب يرد العمل إلى صاحبه. ما يلقاه الإنسان هناك ليس شيئًا غريبًا ألصق به، بل حصيلة ما اختاره لنفسه. لقد كان

ينسج أيامه خيطًا خيطًا، فإذا السراويل في الآخرة من جنس ما نسج، وكان يشعل الشر في حياة الناس، فإذا النار تغشى وجهه.

والجزاء من جنس العمل قاعدةٌ توقظ الضمير: من ستر مسلمًا ستره الله، ومن نفّس كربةً نفّس الله عنه، ومن مشى في حاجة أخيه كان الله في حاجته؛ وفي الجهة المقابلة، من ضيق على الناس وعذبهم وملأ حياتهم خوفًا، وجد من الضيق والعذاب ما يناسب كسبه، من غير ظلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لا تشغله محاسبة نفس عن نفس، ولا يحتاج إلى زمن يراجع فيه المعلومات أو يجمع الأدلة؛ فعلمه سابقٌ محيط، والأعمال محفوظة. يحاسب الخلق جميعًا على كثرتهم كما يشاء، لا يعجزه شيء.

وسرعة الحساب تزيل وهمًا بشريًا: نحن نقيس حساب الله على محاكمنا التي تطول فيها القضايا، وتضيع الوثائق، ويموت الشهود، وتتداخل الملفات. أما محكمة الآخرة فالقاضي فيها هو العليم الذي شهد العمل حين وقع، والكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة، والجوارح نفسها تشهد.

وهي كذلك دعوة ألا يؤجل الإنسان محاسبة نفسه. فما دام الحساب آتياً سريعاً، فليحاسب المرء نفسه اليوم على مهل التوبة، قبل أن يُحاسب غداً بعد فوات العمل. ليس الورع أن تنتظر حتى تنكشف الجريمة أمام الناس، بل أن توقف نفسك أمام الله في خلوتك، وتعترف، وترد الحقوق، وتصلح ما تستطيع.

كل ليلة فرصة لأن تفك قيداً قبل أن يصير صفداً، وأن تطهر ثوباً قبل أن يصير قطراناً، وأن تغسل وجهك بدمعة توبة قبل أن تغشاه النار. ما دام الإنسان حيّاً، فإن باب التحول مفتوح؛ والمجرم الذي تصوره الآيات ليس محكوماً عليه بهذا المصير إن عاد اليوم إلى الله صادقاً.

فالتوبة لا تمحو الفعل من السجل فقط، بل تعيد بناء الإنسان الذي فعله. تنقله من هوية المجرم إلى هوية العبد المنيب، وتبدل وجهته، وقد يبذل الله سيئاته حسنات إذا صدق إيمانه وتوبته وعمله.

ولهذا فإن مشهد النار، على شدته، يحمل رحمةً لمن يقرؤه قبل وقوعه. لقد أراك الله القيود وأنت تستطيع كسر أسبابها، وأراك السراويل وأنت تستطيع تغيير لباس روحك، وأراك الحساب وأنت لا تزال تملك أن تزيد في الحسنات وتمحو بالتوبة آثار السيئات.

الفصل الحادي والعشرون

هذا بلاغٌ للناس... خاتمة السورة ووصيتها الكبرى

قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

تنتهي السورة بآية واحدة تجمع غايات الطريق كله. بعد مشاهد الرسائل، وأيام الله، والشكر والكفر، ودعاء إبراهيم، ومكر الظالمين، وبروز الخلق، والجنة والنار—تقول السورة: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾.

هذا القرآن، وما اشتملت عليه هذه الآيات من بيان وإنذار، بلاغٌ يصل إلى الناس جميعًا. والبلاغ هو ما يبلغ بهم موضع الحجة، ويصل إلى أسماعهم وعقولهم، فلا تبقى الرسالة سرًّا محجوبًا ولا معرفةً خاصةً بطبقة من الناس.

مرة أخرى تعود السورة إلى الإنسان كلّ الإنسان. بدأت بقول الله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وتختتم بقول الله: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾. بين البداية والنهاية تمتد يد الرحمة إلى البشرية: إخراج وبلاغ، نورٌ وإنذار، طريقٌ ومصير.

ليس القرآن خطاب عزلة ينسحب بأهله من هموم الإنسان، بل بلاغ للناس يحمل لهم حقيقة وجودهم. يخاطب المستكبر والضعيف، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، ومن يعيش في وادٍ غير ذي زرع ومن تحيط به الثمرات. فكلهم يحتاجون إلى جواب السؤال نفسه: من ربكم، ولماذا خلقتكم، وإلى أين تصيرون؟

﴿وَلْيُنْذَرُوا بِهِ﴾. الإنذار وظيفة من وظائف القرآن، لا ينبغي أن تُمحي طلباً لراحة زائفة. فالإنسان يحتاج إلى الرجاء الذي يفتح قلبه، وإلى الخوف الذي يحرس خطاه. وإذا حدث بالنعيم وحده ربما أمِن مكر الله، وإذا حدث بالعذاب وحده ربما قنط من رحمته؛ والوحي يربيه بين الخوف والرجاء.

والإنذار يكون ﴿بِهِ﴾؛ بالقرآن نفسه، لا بأهواء البشر ومبالغاتهم. فالذي يحدد الخطر ومآله هو الله، والمبلغ أمين لا يزيد في الدين ليرهب الناس، ولا ينقص منه ليسترضيهم. جمال الخطاب لا يجوز أن يحجب الحقيقة، كما أن بيان الحقيقة لا يحتاج إلى جفاء ينقر القلوب.

ثم تأتي الغاية المركزية: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحْدٌ﴾.

كل مشاهد السورة تقود إلى هذه الحقيقة: إخراج الناس من الظلمات غايته أن يعرفوا الإله الواحد. وتذكيرهم بأيام الله يعيدهم إلى قدرته الواحدة. وإنقاذ موسى لقومه يحررهم من فرعون ليعبدوا الله وحده. ودعاء إبراهيم يحمي ذريته من الأصنام. ومثل الكلمة الطيبة يبدأ بكلمة التوحيد. وتبدل الأرض ينتهي ببروز الخلق للواحد القهار.

التوحيد ليس فصلاً من فصول العقيدة فحسب، بل الخيط الذي تنتظم به الحياة كلها. أن تعلم أن إلهك واحد يعني أن تكون قبلتك واحدة، ومرجعيتك العليا واحدة، وغاية حياتك واحدة. فلا يتشظى قلبك بين آلهة الرغبة والخوف والمصلحة.

حين يكون الإله واحداً، لا يصبح الإنسان واحداً منقسماً في المسجد وشخصاً آخر في السوق. لا تكون له أخلاق أمام الضعفاء وأخلاق أخرى أمام الأقوياء. فربه الذي يراه في سجوده يراه في خلوته، وربّه الذي أمره بالصلاة أمره بالعدل، وربّه الذي رزقه يسأله أين أنفق ما رزقه.

التوحيد وحدةٌ داخلية قبل أن يكون مقولةً ذهنية. يجمع شتات النفس تحت سلطان الله، فيتصالح ظاهر الإنسان وباطنه، وتتحلر أفعاله من الحاجة إلى أقنعة كثيرة. ومن كان له ربٌّ واحد لم يحتج إلى ألف وجه.

والمعرفة المطلوبة ليست أن يعلموا لفظًا مجردًا: «الله واحد»، بينما تظل حياتهم موزعةً بين الأنداد؛ بل علمًا يثمر عبادةً وخضوعًا ومحبةً وتوكلًا. كم من إنسان يقر بوحدانية الله بلسانه، ثم يعيش كأن الرزق بيد البشر استقلالًا، أو كأن المكانة هي الإله الذي يستحق أن يُضحّى من أجله بالحق!

أن تعلم أنه إله واحد هو أن تنفي عن غيره حق العبادة، وأن تردّ النعمة إليه، وأن تثق بوعدده فوق مكر الماكرين، وأن تخاف مقامه فوق تهديد المستكبرين، وأن تقيم الصلاة له، وأن تنفق من رزقه ابتغاء وجهه.

ثم تختتم الآية: ﴿وَلْيَذْكُرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

الألّباب جمع ألب، وهو العقل الخالص من شوائب الهوى. ليس كل من امتلك قدرةً على الجدل من أولي الألّباب، فقد يكون العقل حادًا لكنه مسخر للدفاع عن الشهوة. أولو الألّباب هم الذين يصل الفكر عندهم إلى القلب، وتتحوّل المعرفة في حياتهم إلى تذكّر واستجابة.

قال: ﴿وَلْيَذْكُرْ﴾؛ لأن حقائق التوحيد كامنة في الفطرة، لكن الغفلة تغطيها، فيأتي الوحي لا ليزرع في الإنسان شيئًا غريبًا عن أصل

خلقته، بل ليوَقظ ما خفت فيه. إنه يزيل الغبار عن مرآة القلب حتى ترى الحقيقة التي كانت الآيات كلها تشير إليها.

والتذكر ليس استدعاء معلومة باردة، بل عودة إلى الميثاق والمعنى والغاية. أن تتذكر حين تفتنك الدنيا أنها متاع، وحين يخيفك الظالم أن الله ليس بغافل، وحين تتكاثر عليك الأنداد أن إلهك واحد، وحين تتأخر الإجابة أن رب إبراهيم سميع الدعاء، وحين تقل الأسباب أن الوادي غير ذي الزرع قد تهوي إليه أفئدة الناس.

وهكذا تنتهي السورة، لكن البلاغ لا ينتهي. آخر آية لا تغلق الباب، بل تفتحه أمام القارئ: لقد بلغك، فماذا ستصنع بما بلغك؟ الإنذار وصل، ووحدانية الله بُيِّنَتْ، والأمثال ضُربت، ومصائر السابقين عُرضت. بقي موقف القلب.

إن القرآن لا يريد قارئاً يقف بعيداً عن المشاهد ويتأمل جمالها وحده، بل يريد إنساناً يدخلها ويحدد موقعه منها. أهو من الشاكرين أم ممن بدلوا النعمة كفرًا؟ أهو من أصحاب الكلمة الطيبة أم من المتعلقين بشجرة لا قرار لها؟ أهو من الذين يقيمون الصلاة أم ممن يطلبون العودة بعد فوات الأجل؟ أهو ممن يخاف مقام الله أم ممن يغتر بالإمهال؟

سؤال السورة الأخير ليس: هل أعجبك البلاغ؟ بل: هل بلغت به التوحيد؟

خاتمة

من ظلمات القلب إلى نور الله

بدأت سورة إبراهيم بكتابٍ ينزل من السماء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وانتهت ببلاغٍ للناس ليعلموا أنما هو إله واحد. وبين مطلعها وختامها رسمت طريق التحرر الكامل: أن يخرج الإنسان من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد، ومن غفلة النعمة إلى يقظة الشكر، ومن الخوف من الطغاة إلى التوكل على العزيز، ومن الانخداع بظاهر الدنيا إلى اليقين بيوم الحساب.

علمتنا السورة أن الباطل متعددٌ متشظٍ، وأن النور واحد. للظلمات أبواب كثيرة: شهوةٌ تستعبد، وخوفٌ يذل، وموروثٌ يمنع السؤال، وقائدٌ يطلب من أتباعه أن يعطلوا عقولهم، ونعمةٌ تتحول في يد الجاحد إلى طريق للهلاك. لكن طريق الخروج يبدأ من كلمة واحدة ثابتة: لا إله إلا الله.

وعلمتنا أن الرسائل لم تأت لتزيد القيود على الإنسان، بل لتحطم قيوده العميقة. موسى عليه السلام لم يُرسل ليخرج قومه من جغرافيا الاستعباد وحدها، وإنما ليخرجهم من أثر فرعون الكامن

في النفوس. والرسول ﷺ أنزل إليه الكتاب ليخرج الناس جميعاً من كل عبودية تُبْعِدُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ.

وعلمتنا أن الشكر قانونٌ لبقاء النعمة ونمائها: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**. فالعطاء لا يُحفظ بالخزائن وحدها، بل بالقلوب التي تعرف مصدره، والأيدي التي تستخدمه في الخير. وما أكثر النعم التي تبددت حين ظن أصحابها أنها استحقاقٌ دائم، لا أمانةٌ تحتاج إلى الشكر!

وكشفت لنا السورة أن التبعية لا تعفي من الحساب. سيتخاصم الضعفاء والمستكبرون، ويتبرأ الشيطان ممن استجابوا له، ويسقط كل عذرٍ صنعه الإنسان ليهرب من مسؤوليته. لقد دعا الشيطان ولم يجبر، وزين ولم يخلق الإرادة؛ فبقي الإنسان مسؤولاً عن الباب الذي فتحه والخطوة التي خطاها.

ثم ضربت السورة مثل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة: أصلٌ ثابت، وفرعٌ في السماء، وثمرٌ يتجدد بإذن الله. وهنا منحتنا معياراً لا يخدع: ما كان لله ثابت، وإن نما ببطء؛ وما كان للباطل اقتلع، وإن ملأ الأفق ضجيجاً. ليست قيمة الكلمة في علو صوتها، بل في رسوخ أصلها، ولا في كثرة المتناقلين لها، بل في مقدار ما تحمل من الحق.

وفي قلب السورة وقف إبراهيم عليه السلام، يرفع دعاءه في وادٍ غير ذي زرع. لم ينكر قسوة الواقع، لكنه لم يجعله سقفاً لقدرة الله. رأى وادياً قاحلاً، وسأل أفئدةً تهوي وثمراتٍ تُرزق وصلاةً تُقام. وهكذا علّمنا أن اليقين لا يعني ألا ترى انعدام الأسباب، بل أن ترى فوق انعدامها ربَّ الأسباب.

كان أول دعائه الأمن، وأعظم مخاوفه الشرك، وغاية إسكان ذريته الصلاة، وثمره الرزق الشكر، وخاتمة رجائه المغفرة يوم يقوم الحساب. فأعطانا بذلك هندسة الحياة المؤمنة: أمنٌ يحمي العبادة، وعبادةٌ تمنح العمر غايته، ورزقٌ يخدم الطاعة، وذريةٌ تحمل الصلاة، وقلبٌ يظل مفتقراً إلى المغفرة.

ثم جاءت الآخرة في السورة لا خبراً بعيداً، بل ميزاناً يعيد تفسير الدنيا. الظالم ليس ناجياً لأن عقوبته تأخرت، والمؤمن ليس خاسراً لأن نصره لم يكتمل في المشهد العاجل. وراء الإمهال يومٌ تشخص فيه الأبصار، ووراء المكر إلهٌ يحيط به، ووراء الأرض أرضٌ أخرى، ووراء كل قناع بروزٌ للواحد القهار.

إن سورة إبراهيم تخرج قارئها من أسر اللحظة. تقول له: لا تحكم على الكلمة من أول يوم، فقد تكون بذرة شجرةٍ تبلغ السماء. ولا تحكم على الباطل من انتفاشه، فقد يكون رماداً ينتظر الريح. ولا

تحكم على الدعاء من قحط الوادي، فقد يأتيه الرزق من كل مكان.
ولا تحكم على الظالم من أمنه المؤقت، فإن عين الله لا تنام.

ويبقى النداء الأخير متجهًا إلى أولي الأبواب: أن يتحول البلاغ إلى
تذكّر، والتذكر إلى اختيار، والاختيار إلى حياة. فليست الغاية أن
نخرج من السورة بمعلوماتٍ عنها، بل أن تخرج السورة بنا من
شيء من ظلماتنا.

أن تخرجنا من ظلمة الخوف إلى نور التوكل.

ومن ظلمة الاعتیاد على النعمة إلى نور الشكر.

ومن ظلمة التبعية إلى نور المسؤولية.

ومن ظلمة الكلمة الخبيثة إلى طيب القول والعمل.

ومن ظلمة اليأس في الوادي القاحل إلى يقين إبراهيم.

ومن ظلمة الغفلة عن الحساب إلى نور الاستعداد للقاء الله.

وحين تُتَمُّ السورة رحلتها في القلب، يبقى فيها صوت الخليل ممتدًا
عبر القرون: ربنا... ربنا... ربنا. كأن الطريق كله دعاء، وكأن
الإنسان مهما بلغ من المعرفة والعمل يظل طفلاً عند باب ربه، لا
يستغني عن هدايته وتثبيته وقبوله ومغفرته.

وهذه هي الحرية التي تهدي إليها سورة إبراهيم: أن يكون قلبك لله
وحده؛ فلا يملكه صنم، ولا يرعبه طاغية، ولا تشتريه نعمة، ولا
يبده خوف، ولا تخدعه دنيا. يمشي على الأرض، لكن فرعه في
السماء؛ يعيش بين الأسباب، لكن اعتماده على رب الأسباب؛ ويقيم
في وادٍ قد يخلو من الزرع، غير أن في قلبه دعاءً يعرف أن الله
يسمعه.

وهنا تكتمل تأملات سورة إبراهيم بجميع آياتها الاثنتين
والخمسين، والحمد لله رب العالمين.